غصون رحال

في البال

رواية

الإهـداء ؛

إليـــــــه هنـــــــاك ،
فـي عليــائـــــــه . . .

«تعالي فما زال لون السحاب
حزيناً . . . يذكّرني بالرحيل
رحيل
تعالي تعالي نذيب الزمان
وساعة في عناق طويل
ونصبح بالأرجوان شراعاً وراء المدى
وننسى الغدا . . .
بدر شاكر السيّاب

(١)

وراء الباب ، ليل يذوي بصمت .

في الخارج ، مطر يطرق زجاج النافذة بعنف ، وريح هوجاء تصرّ على النفاذ عبر شقوقه الجانبية مثبتة حضورها .

في الجو ، رائحة رطوبة لزجة ترشح من ثنايا الجدار .

في الركن ، مصباح معدني طويل يسعل ضوؤه العليل ، فتتراقص فوق جدران الحجرة البيض خيالات شاحبة ، مسبغة على المشهد حسّاً جنائزياً مبكراً .

فوق السرير ، يسترخي جسدها نصف حيّ ، نصف ميت!

الحرام الصوفيّ المرقّط يلفّها بوبره الغزير ، مغيباً ما تبقى من معالم الجسد المغيبة أصلاً ، ورأسها الحليق يختفي تحت قبّعة قطنية ناعمة لا تفارقه ليلاً أو نهاراً .

عيناي تلتقطان مشهدين متعاكسين . عين على شاشة التلفزيون ، وعين على وجهها الشاحب ، يطلّ من مرآة طاولة الزينة المقابلة للسرير . الشاشة التي لا ترحم تواصل قصفنا بأخبار الموت ، والفسفور الأبيض . دويّ القنابل الهادر دون انقطاع منذ يومين ، موصلاً الليل بالنهار ، ينذر بمجزرة محققة ،

بمذبحة فاخرة تعتزم احتلال أروقة الفضاء لزمن غير معلوم . . . أوركسترا من آلات القتل والدمار تعزف ، براً وبحراً وجواً ، سيمفونية الموت المدنّس .

تلتقط بيدها الواهنة جهاز التحكم عن بعد ، وتضغط على أزراره متجوّلة ما بين القنوات الفضائية . . .

قناة الجزيرة تبث صورا لبيوت متهالكة ، وأجساد ممزقة . . . «زووم إن» ، ويظهر وجه طفل مغطى بالدماء فوق نقّالة يحملها رجال الإسعاف . «زووم أوت ،» ويظهر بيت يلتصق بالأرض وامرأة تولول فوق أنقاضه . . .

نيتانياهو ، وباراك ، وليفني يعقدون اجتماعاً مصغّراً وهم يتبادلون الابتسامات على قناة CNN . . .

خبر عاجل على شاشة العربية : «حزب الليكود يتصدر قائمة استطلاعات الرأي للفوز بالانتخابات القادمة . . .»

وزيرة الخارجية «تسيبي ليفني» تطل على شاشة BBC ، في بث محموم للمؤتمر الصحفي الذي عقدته برفقة وزير الخارجية المصري من قلب القاهرة قبل أيام قليلة ، معلنة بحزم : «لن تتهاون حكومة اسرائيل مع صواريخ حماس بعد اليوم . . . Enoght is enough» .

أطفأتُ أنوار تلك الشاشة اللعينة ، إلا أنها أصرّت على أن تعيد إليها بريقها المحموم ، متذرّعة بأنها تريد أن تتفقد الشهداء ، وتحفظ أسماء المنكوبين ، على الرغم من علمها التام أن الشهداء والمنكوبين لا أسماء لهم ، فقد تحولوا إلى مجرد

أرقام تحتلّ الشريط المتحرك في أسفل الشاشة ، تتكاثر بصمت وتصميم لا يردعه إلا موت مماثل!

منذ أيام ، أشياؤها الصغيرة لم تبرح مكانها . تمترست داخل إطار ثابت تمّ اختزاله في صورة فوتوغرافية ، التقطت على حين غرّة ، ثم تركت جانباً . زجاجة العطر على طاولة الزينة لم تنقص رشّة واحدة ، شالها الحريري ما زال يحتضن كتف الكرسي ، حقيبتها الجلدية السوداء الصغيرة ، التي رافقت نزهاتنا ، تقبع في مكانها على الأرض ، معطفها الرمادي الأثير يتعلّق بإهمال على علاّقة الملابس الخشبية في الركن البعيد . هي الغائبة الوحيدة عن المشهد ، وكأنها مومياء تعرّت للتو من أشيائها الصغيرة تلك ، وتركتها على أمل العودة إليها في حياة أخرى!

أضع بصري جانباً ، وأطلق لبصيرتي عنانها . إنه موسم الموت بلا أدنى مراوغة . إنه عام الموت كما وصفته! أرقبها تئنّ بصمت ، وتحرّك رأسها ذات اليمين ، وذات اليسار فوق الوسادة ، قبل أن تذهب في نوبات غياب ، تطول أو تقصر ، وفقاً لمفعول المسكّن الذي وقع عليه اختيارها من بين كمّ المسكنات الملقاة على الطاولة الجانبية .

أتساءل في نفسي : أيّ مسكّن بوسعه أن يحول بينها وبين هول ما يجري على الشاشة؟ وكأن المرض الذي يفتك بجسدها غير كاف ، حتى تختتم حياتها بمثل هذا الخراب الذي لا يوصف!

في لحظة فاصلة ما بين ليل دخاني السواد ، وفجر فسفوري البياض . استردّت وعيها ، فتحت عينيها على اتساعهما ، استجمعت أنفاسها ونطقت برغبتها الأخيرة :يا غريب ، إن متّ ، فألّف نشيد أناشيد لي ، واحفر اسمي على جذع قبر قرب شجرة ياسمين . . .

أمسكتُ برأسي بين يديّ مانعاً إياه من سقوط محتّم . ابتلعت دمعة عالقة في حلقي ، وأطلقت تنهيدة حارقة . تأملت هذيانها هامساً : أيتها الغريبة ، ما أنا بمنشد ، فأي إرث تحمّليننني؟!

ما أنا إلا عابر سبيل على أرض باعت ضميرها ، أجّرت غيماتها للطائرات المقاتلة ، ومنحت شواطئها للبوارج المدجّجة بالقنابل ، طوّقت أطرافها بالعسس والحراس ، واختارت الانقسام إلى نصفين لا ثالث لهما : شماليّ فاحش الغبن ، وجنوبيّ غارق في اليتم . . . حتى وإن حاولت تنفيذ رغبتك الغريبة هذه ، فلن أستطيع . إذ لست أدري كيف أبدأ ، ولا من أين أبدأ ، وعلى أي شكل سيأتي نشيدك هذا؟ ملهاة أم مأساة؟ ربما ملهاة سوداوية تليق بما يجري في هذا العالم ، أو مأساة هزلية تضفي على الحكاية بعداً أسطورياً غامضاً .

تمتمت لنفسي : لابد أنها تهذي ، ولا تعي ما تقول ، أو أن الأمر التبس عليها بفعل ما تتناوله من أدوية ومسكّنات!

دسست نفسي إلى جوارها في السرير ، أغمضت عيني في محاولة للوصول إلى نوم خاطف مريح ، غير أن النوم ضلّ سبيله

اليّ ، ولم تجد نفعا كل الخراف التي عددتها ، وذبحتها ، وسلختها بغية استجلابه . كل خروف من الخراف التي عددتها كان يثغو في أذني قبل ذبحه : ماذا لو لم تكن تهذي؟ ماذا لو كانت جادة في رغبتها؟

اعتدلت في السرير ، أشعلت سيجارة ، وسحبت أنفاسها ببطء شديد ، سحقت عقبها في منفضة السجائر الزجاجية القابعة على الطاولة الجانبية للسرير ، رشفت رشفة من كوب الماء قبل أن أعود لمطاردة النوم ثانية . أفرغت ذهني من أية فكرة مزعجة ، بحلقت في السقف وتخيّلت أنني أمتطي بساط الريح المزركش وأعلو به فوق السحاب ، أنفذ من غلاف الكرة الأرضية إلى حيث فضاء شاسع مرصّع بالكواكب والنجوم ، نجوم كثيرة لا تحصى تلمع في البعيد ، أطوف حولها وأكاد ألمسها بأصابعي . . .

فجأة ، اختفت النجمات المضيئة عن ناظري ، وارتسمت على اتساع سقف الغرفة صور ومشاهد تمثّل ما مضى من عمري بما اعتراه من اهتراء ، وما لحق به من خدوش ، معروضة أمامي في فيلم تسجيليّ محايد ونزيه . رأيت حياتي بكل تفاصيلها ماثلة أمام عيني كما لو كنت أرى حلماً بعينين مفتوحتين .

نهضت من الفراش مفزوعاً ، جرعت ما تبقى من كوب الماء ، جلست على حافة السرير حاملاً رأسي بين كفيّ ، هززته بشدة في محاولة لنفض ما يمكن أن يكون قد علق به من وساوس وتهيؤات . أسندت رأسي إلى الوسادة وحاولت العودة

إلى النوم مجدداً دون فائدة ، ضربت بقبضتي الهواء ساخطاً : كيف أخلّص رأسي من هذا الجحيم؟

دوّى صوت في أذني مصدّعا جمجمتي : نفّذ رغبتها ، قد لا تكون منشداً كما تدعي ، ولكن الحكاية ، أية حكاية ، لابد لها من منشد! إنها رغبتها الأخيرة ، لن تخذلها بالتأكيد .

قفزت من السرير وكأن قوة خفيّة تحرّكني ، خطوت إلى وسط الغرفة ، ألقيت نظرة شاملة على محتوياتها ، أزحت طاولة المكتب الصغيرة لأجل أن تقابل النافذة ، وجهّزتها بمستلزمات بدت لي ضرورية لإنجاز المهمة : علبة السجائر ، دلة القهوة ، قلم حبر حالك السواد ، وأوراق بيض . أعددت للنشيد طقوسه ، ثم جلست خلف المكتب أرقب شروق الشمس خلف زجاج النافذة ، فطالعتني شجرة تقف عارية دونما خجل على الرصيف . فروعها الطويلة الجرداء تحجب عني الرؤية ، وتحيل الحقل الذي يمتد خلفها إلى صورة مشقّقة أمام ناظري .

منذ أن حططت رحالي على هذه الأرض ، لم يكن بإمكاني تمييز الفصول بسهولة ، لا الشمس ولا المطر بدليل واضح على الفصول ، فقد تسطع شمس زائفة ، باردة ،كأنها لوحة معلّقة في السماء في منتصف كانون الثاني ، وقد تهطل أمطار غزيرة محدثة فياضانات كارثية في عقر تموز .

الأشجار وحدها هي دليلي على الفصول!

راقبتها طويلاً ، رصدت مزاجها ، وتقلبات طباعها وأحوالها . تبدأ أوراقها الخضراء اليانعة ، بالتحول إلى اللون

الأحمر ، فالأصفر ، تتيبس ببطء وتتساقط تدريجياً ، مثل راقصة تعرّ تخلع ثيابها قطعة تلو الأخرى فوق حلبة رقص خافتة الإضاءة ، فأعرف أنها إشارات الخريف . تتعرى مما تبقى على أغصانها من وريقات حتى تصبح جرداء بالكامل ، وبذلك يكون فصل الشتاء قد حلّ . وعندما تعود أوراقها الصغيرة إلى البروز والتكاثف من جديد ، لتغطي كامل غصونها ، أعرف أنه الربيع . أما الصيف ، فيأتي عندما ترتدي كامل ثوبها الأخضر السميك الذي يحجب لون فروعها الداكنة .

أشعلت سيجارة ، وشربت فنجاناً من القهوة ، والأوراق البيض على الطاولة تطالعني بجفاء وتحمّلني وزر بياضها الآثم ، وزر نقائها وخلوّها من خطوط تزيّن بها عنقها أو تزنّر بها خصرها . واجهت بياضها وقلمي في يدي ، كأني أواجه موعداً مع خريف أبديّ ضاعت من حوله الفصول ، خريف يخلو من أول الغيث وآخره ، أعبر اليه أعزل من دون عتاد ، إلا من رأس يؤوي جهنّم ، أصابع من عيدان الكبريت ، وروح تسابق الزمن . . .

حرقت سيجارة أخرى ، أفرغت دلّة القهوة في جوفي ، والأوراق البيض ما زالت تحتفظ ببياضها وجفائها . أصابعي تخشبت ، والقلم في يدي يحرن عن كتابة حرف واحد . ألقيته من يدي فوق الطاولة ، ورحت أجوب الغرفة طولاً وعرضاً كأني بانتظار ولادة طفل يماطل في الخروج من رحم أمه ، في تحدّ سافر لمحاولات الطبيب الحثيثة لطرده عنوة من مأوى ألفه

وسكن إليه . ألقيت نظرة سريعة إلى حيث هي ممددة فوق السرير بوجهها الهزيل ، وجسدها العليل فانفطر قلبي لوعة وأسى . أغمضت عيني ووليت وجهي صوب الطاولة من جديد .

الموت من خلفي والأوراق من أمامي ، ولا بد لي من أن أفرغ هذه الجهنم من رأسي ، أن أصبّها كلمة كلمة حتى تنضب ، ثم أشعلها بعيدان الكبريت . أمسكت بقلمي بيد وبرأسي باليد الأخرى أعصر ما به فوق الورقة . . .

«أما آن لي أن أخلع أوجاعي وأستريح؟»

سؤال ظلّ غائباً عني حتى تلك اللحظة ، غير أنها لحظة فاصلة دون ريب ، لحظة تستولد العدم من رحم اليقين!

طالما كنت على يقين من أن أوجاعي هي جزء مني ، عضو من أعضائي ، فقد كانت ، قبل تلك اللحظة ، تشبه إلى حد كبير ، أنفي المدبب ، أو كفي الخشنتين ، أو حتى إصبع قدمي الكبير المنزوع الإظفر ، غير أنها في تلك اللحظة ، انفصلت عني لتصبح امتداداً لي! كبرت وتفاقمت حتى صارت تشبه سناماً محدّباً يعتلي ظهري . عضوي الجديد هذا ، لا يمكنني رؤيته ، لكني أشعر بجسامة ثقله فوق كتفي ، وأكاد أجزم أنني أتلمّس وبر هضبته ، ونتوءات قمته تحت أصابعي بجلاء كلما تحسّست ظهري ، فتحدوني رغبة لأن أبادر أحدهم بالسؤال : هل ترى هرماً فوق ظهري؟ وكلما أمعنت في تكذيب شكوكي ، ازداد يقيني بأن عضوي الجديد هذا قد غدا قدراً لا مفرّ منه ، تماماً

كما الهرم أو الشيخوخة .

قبل تلك اللحظة ، كنت على يقين من أن نهايتي حتماً ما ستكون فوق صدرها ، لأنني كنت قد خطّطت بالفعل لأن أمضي معها حياة طويلة ، تنتهي بشيخوخة هانئة كحال غالبية الناس هنا . وكثيراً ما كنت أغمض عينيّ لأرانا عجوزين يتعكزان على بعضهما ، يتمشيان في ظهيرة مشمسة في أنحاء حديقة عامة ، يرتاحان على مقعد خشبي حين ينهكهما التعب ، يطعمان الحمام ما يتساقط من فتات خبزهما ، وما إن تغرب الشمس ، حتى أسبل عينيّ ، ثم ألقي برأسي فوق صدرها لأموت ميتة سعيدة ، فيما تتولى الحكومة تأمين كل ما يلزمها من مسكن وعلاج ، ومصاريف دفن . . .

قبل تلك اللحظة ، كنت على الأقل ، على يقين من أنها هنا . صحيح أنها ما زالت ممزّقة ما بين الهنا والهناك ، ولكنها تظل ضمن الجهات الممكنة ، الجهات التي يمكن تحديدها والوصول إليها ، أما بعد تلك اللحظة ، فلست أدري . . . إنها لحظة مختلفة دون شك ، لحظة قائمة بذاتها ، كأنها يوم قيامة ، لا تاريخ لها ، نزعت عنوة عن قائمة الوجود ، شقّها عن مسيرة الزمن رنين هاتف وزجّ بها خارج حسابات الوقت . . .

رنّ جرس الهاتف مبدّداً صمت الجدران . فنجان القهوة الذي تبتدئ به صباحاتها لم تمسّه بعد . تحركت ببطء لتجيب على الهاتف .

وصل إلى مسمعها صوت رقيق يتحدث بلسان إنجليزي

فصيح : Mrs Faris؟

همست : Yes

جاءها الصوت متابعاً : أنا «آن» من العيادة المحلية .

لم تنطق ، أومأت برأسها وهمهمت للمرأة على الطرف الآخر بأن تكمل .

تابع الصوت : الدكتور «وايت» يود مقابلتك بعد الظهر إن أمكن .

بلّت ريقها برشفة من فنجان القهوة ، استجمعت قواها مستفسرة : بخصوص ماذا؟

أجاب الصوت : بخصوص الكشف الذي أجراه لك الأسبوع الماضي .

زفرت زفرة طويلة وقالت : حسناً .

جاءها الصوت خافتاً : نراك لاحقاً . إلى اللقاء .

تعرف ما وراء مثل هذا الاستدعاء . بالأحرى ، لم يفارق تفكيرها منذ أخبرها الطبيب العام أنه يمكن استدعاؤها ثانية من أجل إجراء فحوصات شعاعية لثديها . تيقنت حينها أن تلك الندبة التي اصطدمت بها أناملها فجأة قبل أسابيع قليلة على جانب ثديها الأيسر وهي تستحم ، لن تتركها بسلام .

حينها ، لم تلتفت كثيراً للأمر ، ظنّتها ندبة عابرة نبتت للتوّ بفعل رشاش الماء الدافق . أينعت على غفلة منها منتشية بقطرات الماء الدافئة ، وأنها لابد وأن تذوي وتذهب إلى حال سبيلها قريباً . غير أن الندبة لم تذهب ، بل اشتّدت صلابة

وتحـجّـراً ، وأصـبح لـونهـا مـريبـاً ومنفّـرا على نحـو يسـتـدعي القلق . . . ماذا لو أنه السرطان؟

استحضرت جميع القصص التي سمعتها عن سرطان الثـدي ، واسـتـعـرضت أسـمـاء النسـاء اللواتي أصبن به من قريباتها ومعارفها ، وتلك القصص التي سمعتها عن نساء لا تعرفهن أصبن به وفقدن أحد الثديين أو كلاهما ، وربما حياتهن أيضا . كل مكالمة تلفونية مع إحدى قريباتها أو صديقاتها في عمّـان ، تحمل لها خـبراً عن إصابة جديدة ، حتى غـدت على يقين من أن هذا المرض سينال من جـميع نسـاء الأرض ، إنهـا مسألة وقت لا أكثر ، وعلى جميع النساء انتظار أدوارهن برباطة جأش .

لسـوء الحظ ، أو لسـبب آخـر يصـعب فـهـمـه ، حـان دورها بأسرع مما توقعت . ورغم التحصينات التي أحاطت بها نفسها طيلة هذه السنين لمواجهة أي ضعف أو انهيار في حال إن وقع عليـهـا الدور ، إلا أن حالة من الجزع اجتـاحت كيـانهـا . ألقت برأسـهـا إلى الخلف وأسندته إلى حـافـة المقـعـد وتسـاءلت في نفسـها : وهل هذا وقته؟ ليس الآن . . . ليس هذه السنة على الأقل . . . . لم أتمّ فـرحـتي بعـد ، مـا زلت عـروسـاً وإن تجـاوزت الأربعين!

قامت إلى أعمالها اليومية مسرعة ، رتّبت الفراش ، نفضت الغبـار ، غسلت الأطباق التي في حوض المطبخ ، نظّفت المنزل بالمكنسـة الكهـربائيـة ، أخـرجت كـيسـاً من اللحم من المجـمّـدة

مفكرة فيما عساها ستعد لوجبة العشاء ، استقرت إلى تحضير وجبة من الفاصولياء الخضراء بالإضافة إلى الأرز .

خرجت إلى الحديقة الصغيرة خلف المنزل ، الجو غائم ، الهواء راكد لكنه محمّل برطوبة ثقيلة ، نشرة الأخبار الجويّة أنبأت بسقوط أمطار في المساء . تفقّدت الأزهار التي كانت قد زرعتها مع بداية الربيع ، تحسسّت أزهارها التي تفتّحت وانتشر أريجها مع حلول شهر آب ، رشّتها ببعض الماء ، قلعت بعض الأعشاب التي تصرّ على النمو رغماً عن أنف المبيدات القاتلة التي دلقتها فوقها كي تقطع نسلها .

توجهت إلى شجرة الياسمين . غمرتها بنظرة مشفقة ، لم يتبق فوق أغصانها زهرة واحدة . سقطت جميعها . تناثرت أوراقها الصغيرة وانحشر بعضها في حواف السور طلباً للدفء . كانت تعرف مذ غرستها أنها لن تحتمل هذا الجو اللعين ، ولكنها جازفت بشرائها وغرسها طمعاً في الحصول على شمّة واحدة من رائحة الياسمين .

تفقدت بريدها الإلكتروني ، فوجدت رسالة من «لورا» تخبرها : خرجت قبل قليل من مركز الأمن الإسرائيلي بعد أن تم اعتقالي لثلاثة أيام . كنت ضمن المسيرة السلمية التي شارك فيها العديد من المواطنين الفلسطينيين والعشرات من المتضامنين الدوليين ضد السلطات الإسرائيلية في مواجهة بناء الجدار الفاصل ومصادرة أراضي قرية «نعلين» . أثناء ما كانت المسيرة تتوجه إلى الاعتصام في الأراضي التي قررت السلطات

الإسرائيلية مصادرتها ، قامت قوات الجيش الإسرائيلي بإطلاق قنابل الغاز والأعيرة المعدنية باتجاه المتظاهرين . أصيب ١٥ منهم بعيارات معدنية ، ثلاثة منهم في الرأس ، وأصيب عشرات آخرين بحالات اختناق . تصوري أن الجنود لم يكتفوا بهذا ، بل لاحقوا المواطنين إلى داخل القرية واقتحموا العيادة الرئيسية فيها ومنعوا سيارات الإسعاف من نقل المصابين!

لابد من فضح هذه الممارسات أمام العالم . أظن أنه ينبغي عليّ الآن إعادة النظر في المشروع الذي أعمل عليه .

قبلاتي لك ولوليد ،

لورا .

كتبت لها على الفور : عزيزتي لورا ، قرأت عن المسيرة في الصحف ، ولكني لم أكن أتصور أن الاعتقالات ستطالك . ما الذي زجّ بك في المظاهرة؟ وفق علمي ، مشروعك لا يتضمن المشاركة في المظاهرات . انتبهي لنفسك . قبلاتي .

عادت إلى الهاتف ، أخذت نفساً عميقاً وتنحنحت لتمنح صوتها رنّته المعهودة . رفعت سماعة الهاتف محاولة استرجاع الرقم من ذاكرتها . خذلتها الذاكرة ، قامت لإحضار دفتر الهواتف الصغير مرددة في نفسها : شكلي ختيرت .

أزاحت خصلة من الشعر تدلّت فوق عينها وهي تقلّب أوراق الدفتر . عثرت على الرقم . ضغطت على الأرقام وأنفاسها تكاد تخذلها هي الأخرى .

همست : مرحباً وليد .

قلت : أهلاً حبيبي . استحلي مناداتها حبيبي لسبب أجهله .

ضحكت وأجابت : بل أنت حبيبي .

قلت مختصراً : كيف أنت اليوم؟

تنهدت وهمست : طلبوني في العيادة . . . يبدو أن الأمر غير سار . . . أكيد عندي . . .

قاطعتها : لا تستبقي الأمور . إن شاء الله بسيطة .

ضخّت بعضاً من القوة إلى صوتها مرددة : إن شا الله .

قلت : طمنيني بعد عودتك .

همست : طبعاً .

كانت قد هبطت علينا ، مثل طيف جميل ، في منتصف شهر أيلول ما قبل الماضي ، محمّلة بما لم نعتد وجوده في محلات البضائع الكبيرة المنتشرة هنا ؛ ميرمية ، زعتر أخضر ، جبنة نابلسية بيضاء ، وبقلاوة . كان صديقاً قديماً لوالدي منذ أيام الكويت قد زوّدها بها ، وصادف أن يكون هذا الصديق جاراً لها . ما إن علم بسفرها إلى لندن حتى حمّلها ما لذّ وطاب مما يندر الحصول عليه هنا . وحمّلها سلامه إلى صديقه «أبو عماد» ، والسيدة أم عماد ، وجميع أفراد عائلة رضوان الفارس فرداً فرداً .

لم تعنني أسباب حضورها بقدر ما أسعدني وجود امرأة من هناك في بيتنا . عندما علمت بوصولها ذهبت لزيارة والديّ ، وكانت قبل وصولي قد تعرّفت على أمي وأبي وأخي

وائل وزوجته وأطفاله الثلاثة .

قلت معرفاً بنفسي : أنا سعيد .

ضحكت وقالت : وأنا أيضا سعيدة!

شاغبتها : اسمي سعيد!

تدخل وائل مصحّحاً : لا تصدّقيه ، اسمه وليد وليس سعيد ، لكنه يظن أن دمه خفيف . . .

أجبته معترضاً : كنت سأخبرها بنفسي ، لكنك تصرّ على أن تحشر نفسك دائماً . . .

قطعت علينا مناكفتنا : أهلاً وليد . ثم سألت : ماذا عن الباقين؟

أجاب وائل على الفور : عماد يقيم في أمريكا مع عائلته ، أما لميس فما زالت تقيم في الكويت مع زوجها وأولادها .

تفحصتها بنظرات خفيّة ، جمال عادي لا يثير انتباه النظرة الأولى ، لكنه يحفزّ على المزيد من التفحص الدقيق .عينان صغيرتان ثائرتان ، شعر كستنائي مشاكس ، لا هو أملس تماماً ولا متموّج بالكامل ، شفتان رقيقتان ، قوام متناسق . تتحدث مصوّبة النظر إلى عينيّ محدّثها كأنها قنّاص محترف . أعترف أنه لم يكن بوسعي أن أرد لها نظراتها بمثلها . أحيد بنظري عن مواجهة عينيها خوفاً من سهم كيوبيد الطائش الذي طالما تجنّبته . متحدّثة بارعة . تبادر بالسؤال وفتح مواضيع جديدة كلما هدأ الكلام ومال إلى الصمت . تعرف كيف تشدّ محدّثها وتبقيه تحت سحر كلماتها بعكسي تماماً . أنا بطبيعتي ميّال إلى

الصمت ، أفضّل الاستماع أكثر من الحديث . أتكلّم بنبرة خفيضة يتذمر منها الآخرون . مجامل إلى الحد الذي يجعل من حولي يتّهمني بكبت مشاعري الحقيقية والتخفي وراء الكليشيهات الجاهزة .

استضافها والداي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيتهما ، فأمضت يوم السبت في مساعدة أمي في أعمالها المنزلية وإعداد الطعام ، والتعرف على أزهار الحديقة التي قدمتها لها أمي بشرح مستفيض وهي تتحسس أوراقها بحنان غامر ، وفي عقد صداقة سريعة مع والدي . في المساء ، وأثناء ما كانت أمي تجهّز لها مكاناً للمبيت ، اعتذرت لها عن ضيق البيت قائلة : أتصدقين أنني لم أتعود على هذا البيت الصغير رغم كل هذه الأعوام؟ كم أشعر بالحرج كلما استضفنا أحداً .

تنهدت أمي بحسرة وأضافت : كان بيتنا واسعاً في الكويت . والله تخلّيت عن كل شيء ، حملت معي ما استطعت شحنه في الطائرة فقط . عمك أبو عماد اضطر إلى بيع الأثاث بسعر التراب .

شدّها الفضول لمعرفة أصل الحكاية فسألت : خالتي أم عماد ، هل يزعجك أن تحكي لي عمًّا حدث أثناء الحرب بالتفصيل؟

هزت أمي رأسها نافية ، تركت الوسادة من يدها وجلست على «الصوفا» ، سحبتها من يدها وأجلستها إلى جوارها وتساءلت من أين تبدأ . زفرت بحرقة وقالت : والله ، لا أعرف

كيف أحكي عن تلك الأيام! كانت أياما سوداً . . . ذات صباح وجدنا أنفسنا مشتّتين في بقاع الأرض . عماد وزوجته ، بحكم أنهما مضيفان ، كانا في رحلة إلى أمريكا بينما ظل طفلهما الذي لا يتجاوز السنتين في عهدتي .

تمهلت قليلاً قبل أن تتابع : حتى إننا لم نعرف عن الحرب إلا عندما اتصل عماد في الصباح الباكر . سأل عن أبيه ، فأخبرته أنه ذهب إلى عمله في قصر الأمير ، فصرخ بي مستغرباً : أي أمير ماما؟! لم يبق في الكويت أمراء . . . لقد فروا جميعا . كان يتكلم بسرعة كبيرة خوفاً من انقطاع الاتصال . شرح لي حالهما في أمريكا : ماما ، الخطوط الجوية الكويتية أوقفت جميع رحلاتها إلى الكويت ، نحن عالقان هنا في نيويورك ، ديري بالك على قيس ، لا أعرف إن كنت ونجوى سنتمكن من العودة إلى الكويت مرة أخرى ، يقولون لنا في مكتب الشركة إن على جميع المضيفين والمضيفات الانتظار إلى أن تصل التعليمات من مكتب الشركة الرئيسي في الكويت . . .

عدّلت أمي من جلستها وأكملت : ولم ألتق بهما إلا بعد أن تمكنت من الخروج من الكويت قبل القصف الأمريكي على العراق بأيام ومعي الطفل ، فحضرا إلى هنا لاستقبال طفلهما . أما وليد فكان في قبرص . انقطعت بيننا الاتصالات ولم نعد نعرف عنه شيئاً .

سألت : وماذا عن وائل ولميس؟

أجابت أمي : لميس ووائل كانا يعملان في شركة WG Towelفي الكويت . هل تصدقين أن لميس وزوجها هما اللذان أنقذا أوراق الشركة ومستنداتها من عبث الجيش العراقي بعد أن فرّ صاحب الشركة؟

شنّفت آذانها مستفسرة : كيف؟

تابعت أمي : كانت لميس السكرتيرة التنفيذية لمدير الشركة وتعرف أسرار شركته كافة ومكان حفظ المستندات الخاصة بها . اتصل بها الشيخ صاحب الشركة عبر السفارة الأمريكية وطلب منها أن تخفي مستندات تسجيل الشركة في مكان آمن ، فخاطرت وزوجها بنقل المستندات من مقرّ الشركة وإخفائها في شقة هجرها أصحابها وفرّوا إلى بلدهم .

أضافت وهي تضحك : حين استوقفها جندي عراقي عند حاجز التفتيش ، أخبرته أن هذه المستندات هي أوراقها الشخصية وشهاداتها الدراسية . تفحّصها الجندي بنظرات متشكّكة ، وضع مسدسه فوق الصندوق ، وتناول أحد الملفات ، نظر إليه قليلا ثم أعاده إلى مكانه . لحسن الحظ كان الجندي لا يحسن القراءة ، فلم يتمكن من قراءة الوثائق ، وسمح لها بالمرور . . . الله وحده حماها .

علّقت قائلة : آه والله ، معك حق .

وبعد برهة سألت : وهل بقيتم في الكويت طيلة فترة الحرب؟

هزّت أمي رأسها نافية وتابعت : غادرت الكويت قبل

القصف الأمريكي على العراق بحكم أنني أحمل الجنسية البريطانية ، وهذه حكاية أخرى . . .

قاطعتها : عن جدّ؟ وكيف حصلت عليها؟

ابتسمت أمي مستذكرة : غادر والدي فلسطين أيام الانتداب البريطاني إلى قبرص بجواز سفر بريطاني مؤقت ، كان الإنجليز يمنحونه حينها لمساعدة الناس على السفر . استقرّ في منطقة نائية في شمال الجزيرة حيث تكثر مناجم النحاس . عمل في أحد المناجم ، وسرعان ما وجد له عروساً من سكان المنطقة تزوجها وأنجب ثلاثة أولاد وأنا ، بعد زمن قصير حصل على الجنسية البريطانية ، وهكذا أصبحت أنا وإخوتي بريطانيين لأن قبرص كانت مستعمرة بريطانية وقتها .

فتحت عينيها على اتساعهما بذهول وعلّقت : حكاية غريبة فعلاً! ولكن كيف تعرّفت على عمي أبو عماد؟

تثاءبت أمي قائلة : هذه حكاية طويلة ، اطلبي من عمك «أبو عماد» أن يحكيها لك لاحقاً .

أجابت على مضض : طيب ، لنرجع إلى قصة الكويت . . .

سردت أمي ما تبقى من القصة دفعة واحدة قبل أن تذهب إلى سريرها : قبل القصف الأمريكي على العراق ، ذهبت إلى السفارة البريطانية للحصول على تأشيرة سفر لأبي عماد والأولاد ، فرفضوا منحي التأشيرة . طلبت مقابلة القنصل وأظهرت له جواز سفري البريطاني ، فوافق على إخراجي من

الكويت بمفردي ، بحكم أنني من الرعايا البريطانيين ، أما زوجي وأولادي فقال إنهم غير مشمولين بهذه الرعاية . طلبت منه أن يمنح الطفل أيضاً تأشيرة لأتمكن من إيصاله إلى والديه ، فوافق على اعتبار أنها حالة إنسانية .

بعدها ، شرح لي الخطة التي سينقلون بها الرعايا البريطانيين بعيداً عن أنظار القوات العراقية . طلب مني التواجد في مقرّ جمعية تعاونية في منطقة «حولّي» ، ليتم نقلنا إلى المطار ومن ثم إلى لندن . وهكذا خرجت وبقي أبو عماد ولميس ووائل .

التفتت إلى أبي والفضول يدفعها لمعرفة المزيد من التفاصيل . سألته : عم أبو عماد ، كيف أمضيتم الوقت تحت الاحتلال؟ هل كانت هناك مظاهر احتلال حقيقية؟ هل تعرضتم للأذى؟

ابتسم أبي الذي قارب على الثمانين وأوضح : يا بنتي ، الله بكسر وبجبر! .

نظرت إليه نظرة تدل على عدم الفهم وسألت : كيف يعني؟

رغم كبر سن أبي إلاّ أنه يحب الدعابة والمواربة في الكلام . لكنه سايرها مجاملاً ربما لكي ينهي تساؤلاتها ، ويتمكن من الذهاب إلى النوم : لم يكن احتلالاً بمعنى الكلمة ، أنا أعرف ما هو الاحتلال منذ أيام الاحتلال الإسرائيلي في يافا ، حين كان الجيش الإسرائيلي يداهم

البيوت ويعتقل سكانها ، يطوّقون القرى يومياً ويقتلون الناس في الطرقات ، أما الجنود العراقيون فكانوا يوجدون في نقاط معينة للتفتيش ، لا يطلقون النار إلا إذا تعرضوا لإطلاق النار عليهم من قبل مجموعات من الكويتيين والعرب سمّوا أنفسهم بالفدائيين . . . .

يضحك أبي وهو يكمل : كما قلت لك ، الله بكسر وبجبر ، يعني ، كنت كلما مررت بحاجز يسألني الجندي : من أين أنت؟ أجيب : فلسطيني ، فيضرب لي تحية ويسمح لي بالمرور .

سرح أبي مستحضراً تفاصيل مضى عليها ما يقارب الأربعة عشر عاماً ، ثم تابع : قليلاً ما كنت أخرج من البيت ، فقط لأجل شراء الخبز والمواد الغذائية . أحياناً كنت أخرج لأبحث عن أشخاص يستخدمون خطوطاً للاتصالات الدولية لا أعرف كيف يحصلون عليها . أنتظر لساعات حتى يصلني الدور ، فأتكلم دقيقتين أو ثلاثاً مع أم عماد هنا في بريطانيا ، كانت هذه الدقائق تكلّفني عشرة أضعاف المكالمة في الأيام العادية .

واصلت استفسارها : وكيف خرجتم؟

أسند أبي ظهره إلى المقعد مسترخياً وقال : الله لا يعيد هديك الأيام . . . حاولت الحصول على تأشيرة إلى مصر ، ولكن السفارة المصرية رفضت . تصوّري! مصر لم تسمح لحملة وثائقها بالدخول إلى أراضيها وحكمت علينا بالموت تحت

الحصار! قالوا لنا أولاد ال . . . : إذهبو إلى فلسطين ، أو اعرضوا أمركم على الأمم المتحدة لطلب اللجوء .

زفر بألم وأكمل : آخ يا بنتي ، الله يسامحهم . لو كانت فلسطين غير محتلّة لما كنا غادرناها أصلاً . منذ أن هربت أسرتي من منشية يافا في العام ١٩٤٨ ، إلى غزة وكنت مازلت فتى في السادسة عشرة ، ثم رحيلنا إلى الكويت بوثائق سفر مصرية في منتصف الخمسينات ، لم أعرف لي بلداً غير الكويت .

تسارعت أنفاسها وهي تقترب من غايتها : وكيف عايشتم الضربة الجوية على بغداد؟

هزّ أبي رأسه أسفاً وقال : أخ ، ماذا أقول الآن؟ عندما علمنا بالضربة ، صعد سكان البناية إلى السطح وتابع صغيرنا وكبيرنا ما أسموه «عملية التحرير» . قابلناها بالهتافات والزغاريد ، ليس كرهاً بالنظام العراقي بقدر ما هو الأمل بإعادة الأمور إلى نصابها والعودة إلى حياتنا الطبيعية التي ألفناها .

– وما الذي حصل بعد التحرير؟

– بعد أن انتهت الحرب وعاد الأمراء وأصحاب الشركات . حضر الشيخ صاحب الشركة التي كانت تعمل بها لميس إلى منزلنا ليشكر لميس على جميلها . كانت الحكومة الكويتية قد أصدرت قراراً بالغاء إقامات جميع الفلسطينين في الكويت ؛ فعرض مساعدتنا في الحصول على الإقامة لي ولوائل ، أما لميس فمنحت الإقامة ليس اعترافاً بجميلها ، ولكن لأن زوجها

يحمل الجنسية المصرية . فكّرتُ في عرضه فوجدته لا يتعدى طعنة في الظهر . أبعد كل هذا الإخلاص والولاء يعرض علينا الإقامة فقط؟! والله عيب . حفيدي ، ابن يوم واحد فقط ، حصل على الجنسية الأمريكية لأنه ولد على الأرض الأمريكية ، بينما لم تشفع لي ثلاثون عاماً من التفاني للحصول على أية جنسية عربية! كظمت غيظي وانتظرت أن يأتيني بالإقامة .

– وهل نجح؟

تابع أبي بمرارة : فيما نحن ننتظر ، عادت أم عماد إلى الكويت وحاولت الحصول على تأشيرات سفر إلى بريطانيا لي ، ولوائل . ولكن السفارة لا تمنح تأشيراتها لمن هم دون إقامة ، وبعد سلسلة من الوساطات ، نجحت المحاولة الثالثة التي قام بها الشيخ وحصلنا ثلاثتنا على إقامة لمدة سنة ، وعلى إثرها حصلنا على تأشيرات السفارة البريطانية ، وغادرنا الكويت في ربيع عام ١٩٩٢ . ومن حسن حظّنا جميعاً ان أم عماد تحمل الجنسية البريطانية ، ويحق لها حسب القوانين البريطانية أن تضم عائلتها . تقدمنا بطلب الحصول على الجنسية البريطانية وبعد سنتين فقط حصلنا عليها . صرفت لنا الحكومة معاشاً أسبوعياً ثابتاً ، ووفّرت لنا المسكن والعلاج المجاني ، وها نحن نعيش في هذه الغربة منذ أربعة عشر عاما .

غيّرت الموضوع بسرعة باتجاه استكمال تفاصيل الحكاية السابقة قبل أن يرخي النعاس بثقله على أبي وسألت : عمي

«أبو عماد» ، سؤال أخير من فضلك . . . كيف التقيت بخالتي أم عماد؟

تفاجأ أبي بسؤالها غير المنتظر ، تلعثم هامساً : سأجيب عن سؤالك ، ولكن باختصار . . .

قاطعته : ماشي .

تابع أبي : كان ذلك في أواخر الخمسينات ، وكنت في حوالي السادسة والعشرين من عمري ، حين طلب مني أحد أصدقائي أن أصطحبه إلى المطار لاستقبال خاله القادم من قبرص . في المطار وجدت امرأة وصبية برفقة الرجل ، عرفت أنهما زوجة خاله وابنته . في حياتي لم يقع بصري على فتاة بمثل هذا الجمال . . . صبية في العشرين ، بطول فارغ ، وعينين واسعتين ، واسعتين ، هما أكبر ما رأيت طوال عمري ، تحتلان نصف وجهها الأبيض المشرب بحمرة طبيعية رائعة . . .

همست : آه ، إذن هو حب من النظرة الأولى!

تابع أبي متجاهلاً تعليقها : طلبتها من والدها قبل موعد عودتهم إلى قبرص بأيام ، ولولا صديقي وشهادته أمام والدها بحسن سلوكي وأخلاقي ، لكانت رحلت إلى قبرص إلى الأبد . تزوجنا في ثلاثة أيام ، وأشرف والدها على جميع التحضيرات الخاصة بالمسكن والأثاث بما فيها الجهاز الشخصي للعروس .

نامت ليلتها تلك وهي تفكر في كل ما سمعته ، وربما تحلم بزمن تتشابك فيه المسافات وتختفي فيه الحدود الفاصلة ما بين

الهنا والهناك . . . زمن تلغى فيه جميع الخرائط والحدود ، وينتفي معه الاعتراف بقدسية جوازات السفر .

أبي وأمي أكتفيا من الحياة بما مضى . توقفت مسيرة الزمن بالنسبة إليهما في الثاني من آب عام ١٩٩٠ . كل ما يستحق استحضاره أو الحديث عنه ، هو تفاصيل حياتهما في الكويت لأكثر من ثلاثين عاما . كان أبي السائق الخاص للأمير جابر الصباح ، قبل وبعد تولّيه الإمارة ، موضع سرّه ، والأمين على أسرته . يوصل نساءه وأولاده إلى حيث يرغبون . يستقبل ضيوفه من القادة والأمراء والرؤساء والملوك . وكان الأمير يغدق عليه من كرمه وعطاياه في كل المناسبات ، بالإضافة إلى الهدايا الخاصة التي يمنحها له الزعماء والضيوف ، والتي لا يزال يحتفظ بها ويتذكر مناسبات تقديمها ، حتى إنه بكاه بحرقة يوم وفاته تماماً كما بكى والده ، بالرغم من تخلّيه عنه بعد الحرب .

أما أمي ، فانصبّ همّها الأول على تربية أبنائها وتعليمهم . وبعد أن كبرنا ، باشرت بأخذ نصيبها من الحياة الاجتماعية الحافلة بشتى المناسبات ، وقضاء أشهر الصيف في أوروبا .

منذ أربعة عشر عاما ، وأبي وأمي يبنيان السدود والحواجز التي تحول بينهما والعالم الخارجي في هذا البلد . بيتهما حصن منيع في مواجهة الغرباء ، لا يفتحان الباب لأي طارق إلا إذا كان هناك موعد من أجل كشف أو صيانة أو تصليح خراب ما . لا يخرجان من البيت إلا لقضاء حاجة ضرورية ، أو ابتياع

الحوائج المنزلية . في أعياد الميلاد يكتفيان بوضع بطاقة معايدة على أبواب الجيران ذوي القربى والجار الجنب ، وإن رنّ الهاتف لأمر ما ، يعتذران عن الحديث بسبب عدم تمكنهما من اللغة الإنجليزية بكلمات قليلة : sorry, don't speak English . أخي وائل وأنا من يتكفل بالتعامل مع الرسائل البريدية المتعلقة بالفواتير ، وإصلاح الأعطاب التي قد تلحق بمنزلهما .

راكم أبي خلال هذه السنوات عدداً من أمراض الشيخوخة ، بالإضافة إلى استبدال ركبتيه الطبيعيتين بركبتين حديديتين . أما أمي فتصيبها نوبات من ارتفاع ضغط الدم . فجأة ، يتأجج وجهها الأبيض بوهج أحمر ، ويصعب عليها التنفس ، فتخرج إلى الحديقة مسرعة لاستنشاق الهواء .

أبي بأعوامه التي قاربت على الثمانين ، وشعره الذي ابيضّ بالكامل رغم أنه ما زال غزيراً ، يصرّ على قيادة سيارته الصغيرة لقضاء مشاويره التي يراها ضرورية . لم يستطع نسيان مهنته السابقة . تقدم بطلب الحصول على إجازة لقيادة السيارة رغم أن مقود السيارة على اليمين ومسار الطرق على اليسار بعكس ما اعتاد عليه في الكويت . اجتاز الفحص النظري شفاهة ، لأنه لا يحسن قراءة اللغة الانجليزية وكتابتها ، ورافقه أخي وائل أثناء الفحص العملي متوليّا مهمة الترجمة بينه وبين مسؤول الفحص . يومها خبأ الصورة التي تجمعه بالملكة «اليزابيث» أثناء زيارة لها إلى الكويت في جيب سترته . لم يكشفها لمسؤول الفحص إلا بعد أن اجتاز امتحان القيادة

بنجاح . تفاجأ الرجل بها ، واستغرب كتمانه لها قبل الفحص . أراد أبي من خلال تلك الصورة ، التلميح ضمناً إلى مهاراته الفائقة في القيادة ، التقط مسؤول الفحص تلميحه بسرعة ، وحرّر له رخصة القيادة على الفور .

يتمتع أبي بحنكة أحسده عليها ، أحيانا تشعرني بعض تصرفاته بالحرج ، إلا أنني سرعان ما أكتشف أن للرجل خبرة في الحياة تستعصي على أمثالي . ورغم أنه لم يتعلم من اللغة الإنجليزية إلا النزر اليسير في مدرسة لتعليم الكبار ، إلا أنه يدأب على زيارة السوق الشعبي الذي يقام يوم الأحد من كل أسبوع «market Sunday» لعقد صفقات بسيطة . يقود سيارته التي أصبحت تحمل إشارة «ذوي الاحتياجات الخاصة» رغم تحذيرات أمي ، ويذهب إلى السوق ليدور به دورة أو دورتين مستنداً على عكّازه الخشبي .

يفاصل الباعة : How much?

وعندما لا يعجبه السعر ، وغالباً ما يكون السعر غير مناسب له ، يبادر إلى الاعتراض : No. No. Very much!

وحين يصرّ البائع على السعر ، يتركه ويمضي قائلاً : I do not want

فيرضخ البائع لإرادته ويبيعه السلعة بالثمن الذي أراده . كثيراً ما كان يعود حاملاً سلعاً قيّمة بأبخس الأثمان ، حتى تكدست حاجياته في الكوخ الصغير الذي في طرف الحديقة ، فقام بإدخال بعض منها إلى البيت أمام اعتراضات أمي

وتذمرها من ضيق المكان . أبي يبتاع كل شيء تقريباً ، من مفكّات ومسامير وبراغي ، وقطع السجاد ، والتحف الصغيرة والمزهريات التي بلغ عددها ما يقارب العشرين ، إلى أدوات المطبخ والكهربائيات . . . وربما كانت جولاته تلك ، وما يتبعها من مقتنيات عشوائية غير مترابطة ، وسيلة من وسائل تعبيره عن الرفض ، أو انعدام الأمان الذي لا يدركه أحد سواه .

وحين يغضب ، أو يضيق ذرعاً بأرجاء البيت ، يزمجر ناقماً : أنا عائد إلى يافا .

يقود سيارته إلى قرية قريبة أطلق عليها اسم يافا ، لأنه يرى أن طبيعتها تشبه مدينة يافا باستثناء البحر . ينتبذ هناك مقهى صغيراً لساعات ، والله وحده يعلم ما يدور بخلده من هواجس .

في صبيحة يوم الأحد ، هاتفتُ والدتي لأستفسر إن كان هناك ما ينقصها من حاجيات ، فطلبت منى أن أحضر خبزا طازجا وأسرع لتناول وجبة الفطور معهم . أخذت حمامي الصباحي ، حلقت ذقني ، ارتديت ثيابي ، ورششت قليلاً من العطر فوق وجهي قبل أن أستقل سيارتي إلى أقرب دكان ، تناولت الخبز واتجهت إلى بيت والدي . كانت أمي قد أعدّت إفطاراً حافلاً ، أشهى ما فيه الزيت والزعتر ، قطع الجبنة النابلسية البيضاء ، والشاي المفعم بنكهة الميرمية الطازجة .

بعد أن أنهينا أكواب الشاي ، لم أقوَ على المغادرة وتركها تمضي يوماً آخر برفقة عجوزين ، فهمست لها أن تستعد

للخروج . وكأنها قرأت ما يدور داخل رأسي ، سارعت إلى وضع سترة خفيفة فوق كتفيها ، مشت بضع خطوات باتجاه حذائها ، فلاحظت عرجاً خفيفاً في مشيتها ، ما إن ارتدت حذاءها حتى تلاشى . دققت النظر في حذائها ، فكان نعل الفردة اليمنى أغلظ قليلاً من الفردة اليسرى . حملت حقيبة يدها الصغيرة ، ووقفت عند الباب معلنة استعدادها للخروج .

نقيم على أطراف مدينة لندن ، في الجهة الغربية منها ، حيث تكثر أحياء الأقليات العرقية من مختلف الشعوب التي هجرت أوطانها هرباً من حرب ما ، أو خوفاً من طاغية ما . توجهنا إلى أقرب محطة أنفاق ، ابتعت تذكرتين من تلك التي يمكن استعمالها على مدار اليوم . صعدنا إلى القطار ولم نجد مقعداً فارغاً ، فوقفنا مستندين إلى العمدان الحديدية التي تتوسط عربة القطار ، وتعلقنا بالحلقات الجلدية المثبتة في السقف تفادياً للاهتزازات العنيفة . عند محطة «Westminster» غادرنا القطار ، وصعدنا الدرجات المؤدية إلى الشارع ، فطالعنا مبنى البرلمان وساعة «Big Ben» بعقاربها العملاقة .

تسكعنا قليلاً في ذلك الشارع المكتظ بالمشاة والسائحين من دون أن نتبادل كلمة واحدة حتى وصلنا إلى جسر البرلمان . توقفت وتدلّت بجذعها على حافة الجسر الإسمنتية ، ونظرت طويلاً إلى مياه نهر «التايمز» الرمادية العكرة ، وكأنها تفتّش عن لونه الحقيقي ، وحين عجزت عن تمييزه ، التقطت صورة للنهر ،

وأخرى لمبنى البرلمان والساعة الضخمة ثم أكملت سيرها . عبرنا النهر إلى الجهة المقابلة حيث تقف «London Eye» . تسمّرت أمامها مثل طفلة صغيرة تحلم بالطيران . فردت ذراعيها وحركتهما كأنهما جناحان وسألتني ضاحكة : أترغب بالتحليق معي؟

قلت : لم لا؟

توجهنا إلى شباك التذاكر ، اشترينا بطاقتين ووقفنا ننتظر دورنا في الصعود . وحين ارتفعت بنا العربة الزجاجية إلى السماء ، التصقنا بواجهة الكبسولة الزجاجية الواسعة ، مشفقين على تلك المدينة العريقة وهي تتضاءل تحتنا بنهرها ومبانيها القديمة ، وشوارعها وسياراتها ، وأشجارها ، بينما الضباب يلفّنا بعباءته الرمادية الثقيلة .

أخذنا القطار ثانية إلى محطة «Oxford Circus» ، قطعنا شارع أكسفورد المزدحم بالسياح والمتبضعين مشياً على الأقدام ، تفرّجنا على البضائع المعروضة خلف واجهات المحال الزجاجية ، إلى أن وصلنا إلى «Marble Arch» . أشرت بيدي إلى الشارع المجاور في الاتجاه الأيمن متسائلاً : هل ترغبين بالذهاب إلى شارع «إجوار روود» لتناول وجبة في أحد المطاعم العربية؟

هزّت رأسها نفياً وأضافت مبررّة : لم أفتقد الطعام العربي بعد ، ما رأيك بوجبة سريعة؟

أشرت بيدي مخيّراً : ماكدونلدز أم كنتاكي؟

قالت جازمة : كنتاكي ، لا أتعامل مع ماكدونلدز .

دلفنا إلى المطعم ، وحين جاء دورنا سألتها : كوكاكولا أم سبرايت؟

ردّت بسرعة : لا أتعامل مع هذا ولا ذاك ، سأشتري عصير برتقال .

نقدتُ البائع ثمن الساندويشات وجاءت هي بالعصير وخرجنا . على باب المطعم ، سألتها : ما معنى أنك لا تتعاملين مع ماكدونلدز وكوكاكولا؟ لا تحبينها؟

فتحت زجاجة العصير وارتشفت رشفة ثم قالت : بل أقاطعها ولا أشتريها لأن أصحابها يدعمون إسرائيل .

قلت ساخراً : فهمت ، موقف سياسي يعني . . .أتظنين أن تلك الشركات ستفلس إن لم تشتري بضائعها؟!

ألقت إليّ بنظرة مشفقة دون أن تجيب ، مفضّلة عدم الدخول في جدل لا طائل من ورائه . تلفّتت حولها تستطلع المكان . ثواني وكانت تشير إلى اتجاه ما معلنة : أترى تلك الساحة؟ سنتناول طعامنا هناك . عبرنا نفق المشاة إلى حيث ساحة القوس الرخامي الشهير وجلسنا نأكل طعامنا . تقضم من رغيفها وتلقي ما يتناثر من فتات الخبز على الأرض إلى أن تجمّع سرب من الحمام عند قدميها . فتحت حقيبة يدها ، أخرجت آله التصوير والتقطت صورة للحمام المنهمك بالتقاط الفتات ، وصورة أخرى للبوابة الرخامية .

سألتها : هل ألتقط لك صورة مع الحمام؟

هزّت رأسها بالنفي ، أعادت آله التصوير إلى حقيبتها ،

وعادت هي إلى طعامها .

أردت فتح موضوع للحديث فاستفسرت : رهام ، هل هذه أول زيارة لك إلى لندن؟

قبل أن تتمكن من بلع اللقمة التي في فمها أجابتني بإشارة نافية من يدها . بلعت لقمتها وقالت بصوت واثق : أعرف لندن بكل تفاصيلها . . . زرتها مرات عدّة .

بعد أن أنهينا غداءنا ، استكملنا نزهتنا إلى حديقة « Hyde park» ، اشترينا فنجانين من القهوة من إحدى ماكنات القهوة الجاهزة التي تملأ الشوارع و سرنا حتى وصلنا إلى بحيرة صغيرة ، تعوم على جنباتها بجعات ناصعات البياض ، جلسنا على العشب . تربعت واضعة فنجان القهوة إلى جوارها .

تربّعتُ بدوري وصوّبت نظري إلى البحيرة . ارتشفتُ رشفة من كوب القهوة الكرتوني ، أشعلتُ سيجارة ، نفثت دخانها ثم سألت : ما الذي جاء بك إلى بلاد الثعالب؟

أجابت بتلكؤ : هل تريد الأسباب المعلنة . . . أم الخفية؟ وابتسمت .

ابتسمت وقلت : الاثنين .

رشفت من قهوتها وقالت : أما عن الأسباب المعلنة ، فتسطيع أن تقول إنني جئت إلى بلاد الثعالب لأجل الدراسة والبحث . . .

قاطعتها : البحث عن ماذا؟

مدت ذراعيها إلى الخلف فوق العشب الندي ، ومالت

بجذعها إلى الوراء . صوّبت نظرها نحو ماء البحيرة قائلة : لست أدري بالضبط ، ربما جئت أبحث عن زمن مفقود!

نظرت إليها باستغراب وقد بدت مثل حورية خرجت من الماء لتشارك الكائنات نشيدها .

أومأت لها بأن تكمل . ابتسمت وأشاحت بوجهها عني كأنها تخفي انزعاجاً . لكن الرغبة في البحث والاكتشاف كانت قد اجتاحتني أنا أيضا ، فواصلتُ : وكيف وجدت الزمن هنا؟

عادت إلى جلستها الأولى ، صوبت عينيها نحوي وقالت : وجدته حراً ومتجنياً في الوقت ذاته . هم أحرار منفتحون ، أقوياء ، يصوّبون أخطاءهم إن أخطأوا ويصحّحون المسار . . . غير أن على هذه الأرض ، التي تكثر فيها الثعالب ، ثعالب أخرى بشرية تحتكر الحرّية ، وتعتبرها خاصيّة لا تشمل غيرها من الأمم ، خاصة نحن . . . نحن بالنسبة لهم متخلّفون أو رعاع! لم ننضج بعد ، وعلينا البقاء تحت وصايتهم إلى أن نتعلم كيف نصبح مثلهم ، نحن بالنسبة لهم أحرار فقط عندما يتعلق الأمر بتقليدهم . . . أتفهمني؟

حاولت هضم ما قالت ، وقبل أن أتأكد من أنني فهمت . هززت رأسي بالإيجاب وقلت : وكيف هو الزمن هناك؟

زفرت زفرة طويلة وأضافت : الزمن يا صديقي لدينا محاصر ، أسير ، محنّط ، لا حدود فاصلة بين البداية والنهاية . . . نعيش في أمس أبدي أطاح باليوم والغد .

ضحكت بمرارة متسائلة :هل يعقل أن نرتّب تفاصيل حياتنا الراهنة وفق تقاويم القرون الوسطى؟ هل يعقل أن نرى الفساد يستحكم في مقدّرات الناس من دون أن يساءل أحد؟ هل الفساد لقيط بلا أبوين؟ وهل الفقر قلّة بخت من صنع القدر؟ وهل الظلم من فعل الجان . . .

سكتت فجأة وقد أحسّت بثقل الجوّ . نظرت إليّ وقالت : حتى لا أوجع رأسك ، جئت أبحث عن زمن يعيد للعقل عقله وللإرادة أصابعها .

أخرجت آله التصوير من حقيبتها والتقطت صوراً للبحيرة والبجعات خالصات البياض .

سألتها : هل ألتقط لك صورة مع البجعات؟

هزّت رأسها بالنفي .

قلت باستغراب : ألا تحبين التقاط صور لك؟

هزّت رأسها بالنفي ثانية وهمست : لا أحب التقاط صور لنفسي ، أحب تصوير الكائنات فقط .

خلعت حذاءها وأسرعت إلى حافة البحيرة بخطوات غير متناسقة ، غمست قدميها بالماء ، دارت حول نفسها مرات ، مدت يدها للبجعة فأسرعت البجعة تدسّ منقارها في كفّها ، وما إن تبين لها أن اليد فارغة حتى أشاحت برأسها ومضت .

نبّهتها : حاذري أن تؤذي البجعات ، إنها من أملاك الملكة .

عادت إلى مكانها وهي تضحك غير مصدقة . سألت :

ماذا تقصد؟

أوضحتُ : هناك مرسوم ملكي قديم يعتبر البجع الأبيض الذي يسبح في المياة المفتوحة أو البحيرات العامة من ممتلكات الملكة ، ويفرض عقوبة الإعدام على من يصطادها أو يقتلها .

نظرت إليّ في غير تصديق مكرّرة : الإعدام؟!

قلت بجدية : نعم . لأن الناس اعتادوا على صيدها وأكل لحمها في ذلك الوقت .

هزّت رأسها وعلّقت باشمئزاز : لا أظن أن باستطاعتي أكل لحمها وإن متّ جوعاً .

لم أجد ما أعلّق به ، خطر لي أن أستفسر عن عرجها الخفيف ذاك ، إلا أنني سرعان ما طردت هذا الخاطر ، وعدت إلى متابعة حديثنا السابق : لم تخبريني عن الأسباب الخفية لحضورك!

تهرّبت من الإجابة قائلة : كثيرة . . . وليس هذا وقت الإفصاح عنها .

أطرقت برأسها وشردت إلى هناك ، تجيبني على سؤالي في نفسها : آه ، لو تعلم أنني ما حضرت إلى هنا إلا هرباً . هرباً من حرب أيضاً ، ولكنها ليست كالحرب التي جاءت بكم إلى هنا . إنها حرب من نوع خاص ، إن استسلمت لها ستحيلني إلى طلقة فارغة ملقاة على أحد الأسطح ، خلّفها قنّاص وغد لا يأبه لشيء إلا اغتيال الفرح ، حرب بين نصفين يملكانني ؛ أم وأب . ميدانها البيت ، وضحاياها أنا وإخوتي .

تزوّج أبي من امرأة ثانية ، وفتحت أمي أبواب جهنم في وجه كل من في البيت وعلى رأسهم أنا ، لأني لم أفعل ما هو من صميم واجبي ؛ مقاطعة أبي وزوجته الجديدة . وما الدراسة ، إلا الحجة الوحيدة السائغة التي تمكّنني من ترك بيتي ، وأسرتي والسفر بمفردي إلى بلاد لا تخصّني . إنها الذريعة الشرعية الوحيدة التي تتيح لي استطلاع عوالم جديدة بعيداً عن علاقات الاستقطاب الأبوية الشائكة .

أبي رجل معتدّ بنفسه ، متحكّم ، لا يطيق أن يعانده أحد . يردد على الدوام : أنا فقط آمر ، فأطاع! ويجزل لمن يطيعه الحب والعطاء . قست عليه الحياة في صغره ، فثأر منها في كبره . غادر قريته الفلسطينية الغارقة في الفقر في أواخر الخمسينات وهو في الثامنة عشرة من عمره بجواز سفر أردني إلى الكويت ، أرض الأحلام في ذلك الوقت ، بحثاً عن فرصة أفضل في الحياة ، وساعدته قدرته في حفظ الأرقام واحتسابها ، التي توازي قدرة الآلة الحاسبة ، على العمل محاسباً لدى إحدى الشركات التجارية في الكويت . بعد سنتين ، عاد إلى قريته في إجازة صيفية وتزوج من ابنة عمّه . ودّعها عند انتهاء الإجازه عائداً إلى عمله ، لتلحق به بعد سنة وعلى يدها طفل .

اتخذ أبي من منطقة «النقرة» ، المعروفة بأنها «تل الزعتر» الكويتية ، مقراً لسكناه . أنجب أبي من أمي نصف دستة من الأبناء ، نصفها ذكور ونصفها إناث . منذ طفولتنا ، وضع أبي لنا

نظاماً صارماً ، واضحاً وحازماً ؛ الدراسة أولاً وأخيراً ، ربما لأنه لم يتمكّن من إكمال تعليمه . لا يتهاون البتة مع أي منّا إن تدنّت علاماته المدرسية ، ومن كان يقوده حظّه العاثر إلى الوقوع في مثل تلك الخطيئة ، كان يحرم من المصروف واللعب في الحارة ، ويخلد إلى النوم مبكراً ، رغم أن موعد نومنا في الأوقات العادية يحين مع انطلاق الشارة الخاصة بنشرة أخبار الثامنة مساء .

اعتاد أبي أن يمضي بعض الوقت معنا ، يصطحبنا أيام الجمع إلى البحر ، أو الحدائق العامة إلى أن اكتشف لعبة البورصة ، فازدادت انشغالاته يوماً بعد يوم في السوق المالي وصار يعمل طيلة أيام الأسبوع ويعود متأخراً إلى البيت ، وعوض أن نقضي يوم العطلة على شاطئ البحر أو في الحدائق ، كان يجمعنا ويضع أمامنا المئات من نماذج الاكتتاب وقوائم بأسماء المكتتبين وبياناتهم . لنقوم بملء النماذج بأسماء المكتتبين ، وعدد الأسهم المكتتبة ، وقيمة السهم الاسمية وما شابه . . . وينقدنا خمسة فلسات مقابل كل نموذج .

بالنسبة لنا ، كان الأمر محض تسلية ، أما بالنسبة له فكان تجارة مربحة ، حيث راجت تجارة الأسهم ، وكثرت المضاربات في سوق «المناخ» ، وتراكمت أرباح أبي ، فقرّر أن يستثمر أرباحه في الأردن . كان يسافر إلى الأردن لبضعة أيام ، ينتقي قطعاً من الأراضي خارج حدود التنظيم وينسى أمرها . في منتصف السبعينات ، انتقل بنا إلى عمّان ، سجّلنا في مدارس

خاصة ، بنى لنا بيتاً كبيراً ، وظل هو يتنقّل ما بين الكويت وعمّان إلى أن وقعت كارثة سوق المناخ في العام ١٩٨٢ وخسر كثير من المساهمين استثماراتهم ، فعاد إلينا نهائياً .

في عمّان ، سرعان ما اكتشف لعبة العقار . ارتفعت أسعار الأراضي في الثمانينات بصورة جنونية ، فباع أبي قطع الأراضي التي كان قد ركنها بأضعاف أضعاف ما دفعه فيها . بنى العمارات وأجّرها . في التسعينات دخل سلسلة من المشاريع غير المضمونة فخسر نصف ثروته ، وقنع بما يدرّ عليه النصف الآخر من إيرادات . لم يبخل علينا يوماً ، أشبع ولع أمي باقتناء المجوهرات والحلي الذهبية ، أنفق علينا حتى أنهينا المرحلة الجامعية ، اشترى لنا بيتاً قرب شاطئ البحر في «ويلز» كنا نمضي فيه الإجازة الصيفية ، وتكفّل بتكاليف زواج إخوتي الذكور .

مع بداية الألفية الثالثة ، نصّب أبي نفسه شيخاً واكتفى بحضور الجاهات ، وبيوت العزاء ، والمناسبات الاجتماعية العامة ، وكانت الخلافات بينه وبين أمي قد بلغت أوجها . لا يكاد ينقضي يوم من دون مواجهات ، تتسلّح أمي خلالها بالصراخ والزعيق ، ويلجأ أبي إلى التهديد والوعيد ، إلى أن نفّذ وعيده ، تزوج من امرأة ثانية واستقلّ بحياته عنا .

أمي امرأة عنيدة ، قاسية ، متقلّبة المزاج ويصعب إرضاؤها . فظّة ، إن لم تجد من تنكّد عليه نكّدت على نفسها . غشيمة بما يسمى بكيد النساء ودهائهن ، ولم تسمع عن كهن المرأة وحنكتها . لم تتفهم طبائع أبي رغم عشرتها له لسنين

متراكمة ، وبالرغم من بساطة ضرّتها وخبرتها القليلة في الرجال ، إلا أنها التقطت بحدسها الفطري مزاج أبي وطبائعه . تفانت في طاعته وخدمته ، فأغدق عليها الكثير من حبّه وكرمه ، مما أشعل نيران الغيرة والبغضاء في صدر أمي ، فأعلنتها حرباً مفتوحة .

أدار أبي وأمي المعركة فيما بينهما بحنكة القادة العسكريين ، وصار كل منهما يستخدمنا ترساً تارة ، ورمحاً تارة أخرى في مواجهة الآخر . وكلما توصلنا إلى تهدئة قصيرة ، ينتهكها أحدهما بفعل استفزازي غير مبرّر . انقسمنا إلى ثلاثة معسكرات : معسكر إخوتي الذكور الذين رفعوا راية «أمك ثم أمك ثم أمك» وناصروا أمي حتى في تعنّتها وعنادها ، ومعسكر شقيقتي البنات ، اللتين حملتا شعار «أنصر أباك ظالماً أو مظلوماً» ، فآزرتا أبي ظالماً ومظلوماً دون التقيّد بالشرط القاضي بأن نصرة الظالم تكون بردّه عن ظلمه ، فيما علقت أنا على خط التماس ، وصارت النيران تأتيني من الجانبين لأني رفضت مناصرة أيهما على الآخر . انفردت وحدي بمعسكر ثالث ، ورحت أردّد لكلا الطرفين ببلاهة أحسد عليها : صديقك من صدقك .

فيعلو صوت كل منهما محتجّاً : لست صديقتي . . . أنت ابنتي!

فأمازحهما ضاحكة : لكني بلغت من العمر ما يؤهلني لأن أكون صديقة .

قل لي بربك ، هل بإمكان أي منّا أن يطلّق أمّه أو أباه؟ هل يمكن لعلاقة مثل هذه أن يقام عليها الحدّ؟ أنا مثلك ، لم أجد إجابة شافية ، كما لم أجد ما يبرر بقائي هناك ، وإلى أن تنتهي حرب البسوس هذه ، عليّ الفرار للبحث عن هدنة قصيرة .

هكذا أنا ، ضليعة بطرق الفرار . أنسحب من أي دور أزاوله في هذه الحياة وأعيد البدء من جديد ، فلست ملزمة بأداء دور وحيد . وعندما تتعقد الأدوار ، ويسدّ أمامي الأفق ، أخلط الأوراق وأعيد توزيعها ثانية ، ولم تكن جميع الأدوار التي أوقعت نفسي بها عن سبق إصرار ، كافية لمنحي الإجابات الشافية عن الأسئلة الكثيرة التي تدور في رأسي .

أتصدّق؟ أستطيع التمسّك بهذه الفكرة ما دامت الحياة تدور على هذا المسرح الكونيّ الضخم ، وما دمت قادرة على التخفّف من الالتزامات الزوجية والعائلية . فكما تراني ، امرأة وحيدة بلا زوج أو أطفال . قطعت السنوات العشرين الأولى من عمري أتنقل من مدرسة إلى أخرى ما بين الكويت وعمّان ، أنهيت المرحلة الإبتدائية وجزءاً من المرحلة المتوسطة في الكويت ، واجتزت الإعدادية ، والثانوية فى عمان ، ثم قضيت ما يقارب الست سنوات في الجامعة أنهيتها بشهادة في العلوم السياسية . سحرتني الحياة الجامعية في القاهرة ، كما سحرتني القاهرة ذاتها ، فأطلت إقامتي هناك قدر المستطاع ، ولولا قطرات الندى تلك ، لاهترأت روحي من صدأ الوظيفة المضنية في مركز للدراسات والأبحاث .

الدائرة الآن تضيق حولي ، تكاد تخنقني ، وإن لم أجد مخرجاً ، وبشكل سريع ، سأجنّ حتماً . جاء الحلّ من حيث لم أحتسب ، منحة دراسية من دون مقابل لمدة عام في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن ، يخصصها مركز الأبحاث الذي أعمل فيه لأصحاب الكفاءة من العاملين لديه للحصول على درجة الماجستير . رأى مجلس الإدارة في طلبي الكفاءة المرجوّة ، فكانت من نصيبي .

أتينا على فنجاني القهوة ، ورحنا نتسكع في أرجاء الحديقة ، الشمس ساطعة على غير العادة ، أولاد يلعبون بزلاجاتهم الدولابية ، عجوزان يحتلان مقعدا خشبياً ، سرب من الفتيات يركضن بملابس رياضية قصيرة ، أكشاك لباعة الأيس كريم ، والمشروبات الغازية والساندويشات ، سناجب تقفز من مكان إلي آخر بلمح البصر ، حمام يلتقط ما تيسر له من طعام من بين أرجل المارّة ، وزقزقة عصافير في البعيد . . .

فاجأتها بسؤال عابر : هل أفهم مما قلت أنك لا تحبين العيش في عمّان؟

انتبهت وكأنها تعود من مكان بعيد . أجابت ببعض المرارة : يعني ، يمكنك القول إن علاقتي بعمّان علاقة ملتبسة يصعب تفسيرها أو وصفها . أحياناً أراها خبزي ونبيذي ، وأحياناً أخرى أحسّ بها مقصلتي وصليبي . أبتعد عنها كي أراها ، أخاصمها لأعاود التصالح معها ، أعاقبها ثم أصفح عنها . . . وهكذا . . .

- يعني؟
- يعني . . . كيف أصفها لك؟
- أنت أدرى!

تطلّعت إلى الأفق محاولة تجميع أفكارها ثم قالت : أشعر أن عمّان مدينة مرهقة ، أو شائكة يصعب احتواء مزاجها المتقلّب أو فهم شبكة علاقاتها الاجتماعية الجامدة ، مدينة لا تعترف بالفرديّة والخصوصية ، ومن لا ينتمي إلى عشيرة ، أو شلّة ، أو أي مجموعة مهما كانت ، يجري تهميشه ويعدّ من الضّالين ، ولكن . . .

قاطعتها بفضول : ولكن ماذا؟

نفخت الهواء وتابعت : ولكن المشكلة على الأرجح ، أنني لم أعد أستطيع مجاراتها! . لم تعد عمّان تلك الطفلة البريئة . كبرت ، وتضخّمت ، وتغيرت ملامحها بسرعة فائقة ، أصبحت امرأة فاجرة تهوى التسوق والبهرجة والسّهر ، بينما بقيت أنا على سذاجتي مغرمه بعمّان أيام زمان ، عمّان الطفلة ، قبل أن تقتلع عن أرصفتها أشجار الزيتون وتنبت على جنباتها «المولات» الضخمة ، والبوابات الشاهقة ويصير لها شارع للماركات . قبل أن تكتظ بالأنفاق ، والجسور ، وتختنق بزحمة السير ويصبح لكل سائق شارعه وقانونه . قبل أن يختفي بائع الفاكهة الجوّال الذي كان يطوف أحياءها القديمة بعربته منادياً : «عالسكين يا بطيخ» ، أو «يا لله الصبر» ، أو «أخضر يا لوز» . . . وفقاً للمواسم . قبل مجيء الديمقراطية وتشكيل البرلمان الذي

يزاود على الحكومة في فرض الضرائب ، ورفع الأسعار ، ومصادرة الحريّات . كنا على الأقل نحارب عدواً واضحاً : الأحكام العرفية ، فماذا نحارب اليوم؟

توقفت تستذكر : ماذا أيضاً؟ أه ، قبل أن يفتك بها الفقر ، وأكتشف أن تلك المرأة ذات الشعر الطويل الأشعث المصبوغ بالحنّاء ، والثياب المهلهلة ، التي كنت أراها تحمل كيس الزبالة البلاستيكي الأسود وتنبش في حاويات القمامة ، ما هي سوى «أحمد»! يؤكد لي على نحو لا يقبل الشك ، أن فقرا مثل هذا لا يمكنه إلا أن يكون ذكراً فقط؟

أشعلتُ سيجارة ، سحبت نفساً وصمتُّ أفكر في كلّ ما قالته . أحسست كم هي وحيدة ونائية ، ليس كوحدة النساء الكثيرات اللواتي ألتقي بهن في الحانات في عطلة نهاية الأسبوع ، تلك الوحدة التي تختفي ما إن يطلّ شاب وسيم عبر الباب ، إنها وحدة من نوع خاصّ . وحدة ذاك الذي يعرف ما يريد ، غير أنه يكتوي بنيران العجز عن تحقيق مراده .

أخذنا قطار الأنفاق ثانية باتجاه العودة ، نزلنا في محطة Park Royal القريبة من المنزل . في الطريق سألتها : وماذا تفعلين في الحياة؟

– أكتبها .

– حقيقة . ماذا تعملين؟

ضحكت قائلة : أتلاعب بالكلمات ، أركّبها ثم أفككها ثم أعيد تركيبها من جديد . . . . أكتب .

– وماذا تكتبين؟

– أكتب الأبحاث والدراسات . . . وأحياناً الروايات .

– حقاً؟ هل أنا أمام كاتبة وروائية إذن؟

– باستطاعتك تسجيل هذه الواقعة . وماذا تفعل أنت؟

فكّرت قليلاً : يا لها من مغرورة! ترى ما عساها تخفي وراء تلك الثقة الزائدة بنفسها؟ لابدّ أنها تتستر على قصة مؤلمة ، أو تهرب من ماض حزين .

بحثت عن إجابة لا تقلّ غروراً وقلت : أما أنا فأشقلب الكلمات .

– كيف؟

– أترجمها . . .

– من العربية إلى الإنجليزية؟

– لا . من العربية والتركية إلى الإنجليزية . . . غير أني أتقن اللغة التركية أكثر من العربية .

– لماذا؟

– لأن علاقتي باللغة العربية انتهت منذ تركت الكويت وأنا في التاسعة عشرة من عمري .

– أما أنا ، فاللغة العربية هي مثوى وجودي!

توقفت أمام أحد محال بيع الكتب ، استدارت لتستعرض بعض العناوين المعروضة خلف الواجهة الزجاجية ، ومن دون أن تلتفت سألتني : هل تعلم أننا متشابهان؟

ضحكت مستوضحاً : وهل قرأت هذه المعلومة على غلاف

أحد هذه الكتب؟

التفتت نحوي وتابعت وكأنها لم تسمع تعليقي : كلانا من أصل فلسطيني ، ولدنا في الكويت ، ثم طفنا في المنافي .

قلت : صحيح ، ولكنّا مختلفان أيضا؟

- كيف؟

دفعتها بلمسة فوق كتفها لمواصلة المسير شارحاً : مختلفان في الاتجاه ، أنا اتجهت شمالاً ، تركيا فقبرص ثم هنا ، بينما بقيت أنت جنوبية بامتياز .

هزّت رأسها علامة الموافقة وتساءلت : صحيح ، مساران متعاكسان . ما الذي جمعنا إذن؟ هل اهتدى الجنوب إلى شماله ، أم انحرف الشمال عن المسار؟

أطرقتُ أفكر في سؤالها ، ثم قلت ضاحكا : لا هذا ولا ذاك ، جمعنا الزعتر والميرمية على ما أظن .

نظرت إلى عينيّ كمن اكتشف كنزا وقالت : ولم تضحك؟ صح . . . ما جمعنا إلا خيرات الأرض ، أرضنا التي تحنو على أبنائها أينما كانوا ، وتغدق عليهم من عطاياها .

تساءلت في نفسي : لم تأخذ كل شيء بجديّة هكذا ، حتى النكتة؟ ألا تعرف كيف تكون أكثر عفوية؟

في اليوم التالي اصطحبتها إلى محطة القطار لتعود إلى جامعتها . جلسنا في المحطة ننتظر وصول القطار ، فانتهزتُ ما تبقى من دقائق قليلة لأستفسر عن أمر ألحّ عليّ بشدة ولم أطق تأجيله : هل من رجل في حياتك؟

أشاحت بوجهها عني ولم تواجهني بنظراتها كما اعتادت ، ثم قالت : لا متسع للرجال في حياتي ، أنا امرأة هوائية لا أحب المكوث طويلاً في مكان واحد .

شعرت بأنها تخفي خيبة كبيرة ، فواصلتُ : ولكن ، لكل منا احتياجاته العاطفية .

قالت بحزم : أحاول تجنّب التفكير بمثل هذه الاحتياجات .

- وهل نجحت؟

لم تجب وقفت ، حملت حقيبتها وقالت : وصل القطار .

أشارت لي مودّعة ومضت .

سألت : هل يمكن أن نواصل تعارفنا عبر الهاتف؟

ومن دون أن تلتفت ، قالت : أكيد .

مضى القطار يحملها إلى عالمها الجديد ، وما إن غاب عن ناظري ، حتى أيقنت أن قصتي مع مصير ما قد بدأت .

اتخذت مقعدها قرب النافذه ، شردت تنظر إلى الحقول ، المراعي ، الأشجار ، خضرة بلا حدود ، تطغى على ما تبقى من الألوان باستثناء أفق ظلّ يحتفظ بزرقة يخالطها بياض خفيف .

سرحت تجيبني عن سؤالي : آه ، نسيت أن أخبرك أنني أهرب من رجل أيضاً ، رجل تخلّى عني وتمسّك بوجهي الحجري! كنت التقيته في إحدى الندوات الثقافية ، وقد صدرت له رواية أولى كثر فيها المديح ، وما كنت قد قرأتها بعد . وحين تبرّعت إحدى الصديقات بمهمّة التعريف ، شهق : آه ، أنت شجن!

تملكتني الدهشة ، ثم تداركت قائلة :لا . أنا رهام مختار ، شجن هي إحدى صنائعي .

مطلّق ، له طفلة في الثالثة عشرة من العمر تقيم مع أمها . يسكن بمفرده في شقّة شاسعة ، يتلهّى بتجميل غرفها . يصنع سقفاً خشبياً في غرفة ، يبني موقدة حجرية في أخرى ، وينصب على جانب الشرفة أرجوحة واطئة على الطراز المكسيكي من حبال المصيص الأحمر ، والركائز الحديدية . يسلّي وحدته بالتأمل والقراءة وأعمال النجارة .

ذات جمعة ، دعاني للفرجة على صومعته . بهرتني . لم أصدّق أن رجلاً واحداً بإمكانه إنتاج هذا الكم الهائل من قطع الديكور الخشبية والمعدنية . واظبت على زيارته كل جمعة ، نحتسي القهوة ، نستمع إلى الموسيقى ، نعدّ وجبة خفيفة ، أستلقي على الأرجوحة ، فيجلس على الأرض بالقرب مني يهزّها بلطف كما لو كانت مهد طفل صغير .

سحرني عالمه المنعزل ، ناسك اعتزل الناس وأغلق باب صومعته دونهم . يطيل النظر إليّ وكأني ملاك سقط من السماء ، جوهرة نادرة لا يمكنه المساس بها ، نار مقدسة . أتعبني . وددت لو يعاملني كبشر ، كامرأة من لحم ودم . وددت لو يلمسني ، أو يقبلني ، أو يحتضنني . وددت لو يغضب مني ، أو حتى يثور في وجهي . . . إلى أن كان اليوم الذي وجد نفسه فيه مجبراً على الاختيار ما بيني وبين طفلته الصغيرة ، وما كنت أعلم حينها أن حياتي ستغدو سلسلة من الحروب

الساذجة مع طفلة عنيدة ناصبتني العداء حتى قبل أن تراني ، شحذت جميع أسلحتها وشهرتها في وجهي ما إن علمت بوجودي ، حذّرت أباها من الارتباط بي ، هدّدت بمقاطعته ، ووضعته أمام خيارين لا ثالث لهما : إما أنا أو هي . وباءت كل محاولاتي في بناء هرم ثلاثي الأضلاع : أنا ، وهو ، وهي ، بالفشل . كان عليه أن يخضع لدكتاتورية طفلة عنيدة مدلّلة ؛ الاختيار . وما كان القرار سهلاً ، كان الاختيار بيننا بالنسبة له بمثابة موت يوميّ بطيء .

قررتُ الابتعاد . أخبرته بنيّتي على السفر لأجل أن أمنحه وقتاً كافياً للتفكير وحسم أمره بعيداً عن أية مؤثرات . صارت أحاسيسه وانفعالاته المتضاربة تردني تباعاً عبر رسائل هاتفية قصيرة . يصفرّ الجهاز في الفجر معلناً عن وصول رسالة : أنا في الطريق إليك ، قابليني في منتصف الطريق .

يعاود الجهاز صفيره صباحا ليخبرني : اخترت ابنتي إلى أن يقضي أيّنا على الآخر .

في المساء يصفر الجهاز مرّة آخرى : أيتها المجنونة «شجن» ، البيت فارغ ، الأرجوحة مهملة ، سأكتفي بتقبيل خدك الحجري!

كان قد طلب مني يوماً طلباً غريباً : أرغب بالاحتفاظ بابتسامتك!

ظننتها حالة من حالاته البوهيمية ، غير أنه تابع بإصرار : أرغب في تحنيط ابتسامتك . ما رأيك؟

تساءلت ضاحكة : كالموناليزا؟

أجاب بصوت واثق : تماماً . . . ولكن في تمثال!

قلت باستغراب : حسناً ، ولكن ما دوري أنا؟

أجاب بسرعة : لا شي ، اخلعي حذاءك واستلقي فوق السرير ، ثم ابتسمي واحتفظي بابتسامتك هذه فوق وجهك لبعض الوقت ، واتركي الباقي عليّ .

قلت باستنكار : لن أخلع حذائي .

سأل : لماذا؟

اخترعت كذبة صغيرة أداري بها عاهتي : ستقتلك رائحة قدميّ .

ومن دون أية كلمة ، انحنى على الأرض ، خلع حذائي ، جرّني إلى الحمام أشار لي أن أقفز في حوض الاستحمام ، والجلوس على حافته . ملأ إبريق الماء ، وتناول قطعة الصابون عن المغسلة ، ثم ركع على ركبتيه على أرضية الحمام ، وغسل لي قدمي بالماء والصابون دون أن ينتبه إلى عرجي . أحضر منشفة وجفّف قدميّ هامساً : انتهت مشكلتك يا سيدتي . . . كم أحب هاتين القدمين الصغيرتين .

ضحكتُ مستفسرة : كقدمي ساندريلا؟

وشرحت : هذا ما قاله لي يوماً بائع أحذية في شارع الحمرا في بيروت ، عندما طلبت منه أن يحضر لي مقاس ٣٦ من زوج حذاء أعجبني . قال إنه مقاس ساندريلا ، ولا يوجد منه غير الزوج الذي في«الفترينة» ، اشتريته رغم علمي أن عرجي

سيحول بيني وبين ارتدائه ، خرجت من المحل أحمله في كيس بلاستيكي بكلّ ثقة ، ولا أدري إن كان البائع قد وضع زوجاً غيره في الفترينة ، أم ظلّت ساندريلا حافية القدمين!

ابتسم وقال برجاء : موناليزا . . . ساندريلا ، أرجوك دعيني أعمل الآن . وقبل أن أمنحه موافقتي ، قام مسرعاً إلى أدواته ، خلط الجبس والماء ، فرش شرشفاً قديماً فوق لحاف السرير ، فتح النوافذ والمروحة الكهربائية وكل منافذ الهواء ليجفّ الخليط بأسرع ما يمكن . طلب مني الاسترخاء فوق الشرشف ورسم ابتسامة خفيفة فوق شفتيّ والاحتفاظ بها ، وضع في فمي أنبوباً بلاستيكياً لأتنفس من خلاله ، سكب المزيج الأبيض فوق وجهي وعنقي ، وكنت أجاهد نفسي حتى أبقي على ثبات ابتسامتي ، ومواصلة التنفس عبر الأنبوب . ما إن جفّ المزيج حتى خلع عني قناعي ، اشتغل عليه بأدواته وأصابعه قليلاً حتى صار له وجه يشبهني تماما .

عندما جئته مودعة ، بكى مثل طفل صغير وأهداني التمثال . رفضت وطلبت منه الاحتفاظ به عوضاً عني . أرسل لي يوم سفري رسالة هاتفية أتت على ما تبقى له في قلبي من مشاعر : ضعي قلبك في المجمدة ، أو ألقي به تحت الطاولة للكلاب .

بعد وقت قصير أتبعها برسالة أخرى : يا من غسلت لها قدميها ، فغسلت لي روحي ، لا تتركيني .

عرفت حينها أنه ممزّق ، وعاجز عن التقاط مزقه ، وتأكّد لي

أنه ليس فقط أضعف من أن يتّخذ قراراً ، بل وحبيس ضعفه ذاك أيضاً ، لا يقوى على التغلب عليه أو التخلص منه . لم يبق أمامي إلا أن أتغلّب على ضعفي وأردّ له الصاع صاعين . أرسلت له رسالة نهائية كضربة قاضية : سألقي بقلبي تحت الطاولة للكلاب!

وكان آخر ما تسلّمت منه : عو . . عو . . عو . . .

تركته ينبح وصعدت إلى الطائرة ، وما بين السماء والأرض لاح لي مكمن الخلل . لا ريب أننا نرى ما يدور فوق سطح الأرض بوضوح أكبر حين نبتعد عنها . في السماء ، تجلّت لي الحقيقة ساطعة كعين الشمس ، ما كنت أنا حبيبته ، كان فقط يهوى «شجن» بطلة إحدى رواياتي ، ومن فرط رومانسيته اختلط عليه الأمر ، فما عاد يستطيع التمييز بيننا .

***

وصلت إلى العيادة وأعلنت لموظفة الاستقبال عن حضورها ، فقابلتها الموظفة بابتسامة سريعة وطلبت إليها الانتظار قليلاً إلى أن يفرغ الطبيب من المريض الذي في عيادته . خمس دقائق وكانت الموظفة تطلب إليها الدخول إلى غرفة الطبيب الذي استقبلها بابتسامة مرحبة .

سألها بلطف : كيف تشعرين؟

أجابت هامسة : لا شيء جديداً .

تابع : هل لاحظت أي تغيير على الندبة؟

تحسّست مكان الندبة أسفل ثديها وقالت بتردد : لست

أدري ، ولكنها ما زالت مكانها .

بعد أن فحصها ثانية أوضح : لا أجد نمواً في حجم الورم وهذا مؤشر إيجابي .

تساءلت : هل يمكنك تحديد سبب بروز مثل هذا الورم يا دكتور؟

نظر إليها شارحا : في العادة ، هذه الندب يكون لها أسباب متعددة ، بعضها تسببه الإفرازات الدهنية الزائدة ، وبعضها يمكنه أن يكون أليافاً لمفاوية ، أو أوراماً إما حميدة أو خبيثة .

غرزت أظافرها في فخذها في محاولة لتشتيت توترها . حاولت أن تقول شيئاً لكن صوتها انحبس . واصلت الاستماع وهي تنود برأسها .

تابع الطبيب : لا نعرف بعد طبيعة هذه الندبة ، علينا أولاً إجراء فحوصات مخبرية وشعاعية وأخذ خزعة من خلايا الندبة حتى نتأكد من طبيعتها .

بحلقت في الطبيب بعينين متوسلتين ، بلعت ريقها ، ثم سألت : هل هناك احتمال لوجود مرض خبيث؟

قال الطبيب بصوت مهني محايد : لا أعرف بعد . . . الأمر محتمل ، ولكن دعينا لا نستبق الأحداث . هل سبق لك أن أجريت فحص «ماموغرام»؟

هزّت رأسها نافية . فقال : من الأفضل أن نجري هذا الفحص أولاً .

سحبت نفساً عميقاً قبل أن تستفسر : وهل سيستغرق

ذلك وقتاً طويلاً؟

– الأفضل أن ننتهي من الفحوصات بالسرعة الممكنه . سأحدد لك موعداً لفحص «الماموغرام» ، وأخذ خزعة في المستشفى المركزي ، وأعلمك به .

– شكرا لك . . . طاب يومك .

في طريق عودتها عرّجت على أحد مراكز التسوق الضخمة ، زارت بعضاً من محال بيع الثياب الأثيرة لديها Monsoon و Next ، استعرضت الملبوسات الجديدة ، وملابس السباحة ، اشترت بلوزة سوداء بفتحة صدر رحبة تظهر شقّ النهدين ، وتساءلت إن كانت ستتمكن من ارتداء ملابس السباحة في مستقبل أيامها .

اتجهت إلى حيث أكثر المحلات شهرة Debenhams ، جرّبت أحد العطور الحديثة ، وقاست حذاءً صيفياً مفتوحاً يكشف عن أصابع القدمين ثم أعادته إلى مكانه بحسرة . صعدت إلى المقهى في الطابق الثاني ، توجهت إلى حيث سيدة تبيع القهوة وطلبت فنجاناً من القهوة الخالصة من دون سكر أو حليب ، ناولتها المرأة الفنجان وابتسامة عريضة تعلو شفتيها . جلست إلى إحدى الطاولات وشردت تراقب المارة ، الأطفال ، والباعة إلى أن انتهت من قهوتها المرّة .

عادت إلى المنزل ماشية وظنونها تكاد تشلّ قدميها . ألقت بنفسها على أول مقعد وأجهشت بالبكاء . تلفّتت حولها وكأنها ترى المكان للمرة الأولى ، ما عادت الأشياء على حالها ، كل

الأشياء اكتسبت معاني جديدة ، أثاث المنزل ، أدوات المطبخ ، صورتها على الحائط ، صور رحلة العسل القصيرة في اسكتلندا في البراويز الفضية على الأرفف ، ملابسها المكدّسة في خزانة الحائط الواسعة والتي لم تجد المناسبة لارتدائها . أين ترتديها في مثل هذه العزلة الثقيلة ، لا أهل ، لا صديقات ، لا مناسبات اجتماعية ، لا أعراس؟ حتى جسدها سيصبح مختلفاً . جسدها الجميل ، النضر سيفقد أجمل معالمه .

دخلت إلى غرفة النوم وخلعت ملابسها ، همّت بارتداء ثوبها المنزلي ، فلمحت صورتها ترتسم على مرآة طاولة الزينة . أسقطت الثوب من يدها وانتصبت أمام المرآة . طالعتها ملامح امرأة شاحبة ، منهكة ، تكبرها بعشر سنين . خلعت حمالة الصدر ووقفت تتأمل صدرها العاري . لطالما أعجبت بتكويرة ثدييها ، ولدانة نسيجهما الورديّ الجميل . تحسست ثديها الأيسر فاصطدمت أصابعها بنتوء قاس يؤكد لها أن الندبة ما زالت في موقعها ، لم تختف كما تمنّت ، ما زالت تلتصق بجانب ثديها كوشم قبيح .

قريباً ، لن يكون هناك ما تتحسّسه على الجانب الأيسر من صدرها ، سيختفي جزء من أنوثتها . شعرت بالحقد على كل شيء ، الظروف ، والقدر ، وعلى ذاك المرض البشع ، اللئيم الذي يطعنها في صميم أنوثتها . احتوت كل ثدي بكف وضغطت عليهما بلطف حتى اقتربا من بعضهما ، وكأنها تريد أن تجمعهما في لقاء أخير قبل أن يفترقا إلى الأبد ، وبكت .

هوت على الأرض ، أمسكت برأسها بين يديها وكوّرت جسدها في وضع جنيني وهي تتخيل تضاريسها القادمة : امرأة بثدي على الجانب الأيمن ، وبقعة مطرّزة بالقطب القبيحة على الجانب الأيسر من صدرها ، وتساءلت : «ترى ، كيف سأرضع طفلي إن رزقت بطفل؟»

«كل ما كان منفى يعتذر عني
لكل مـــــا لم يكن منفى!»

محمود درويش

(٢)

صبـاح الأربعـاء ، آخـر يوم من أيام هذا العـام الكئـيب ، والقصف لا يزال على قدم وساق!

الشـمس تغـمـر النافـذة بحـزم خـجـولة من الضـوء وتفـضح عري الشجرة في الخارج ، تغمر حشائش الحقل ، التي ابيضت رؤوسها بفعل الجليد ، ببعض الدفء . النشرة الجوية كانت قد أعلنت عن تشكّل الصقيع في ساعات الصباح الأولى ، الهواء تجمّد هو الآخر .

ألقيت نظرة إلى ساعة الحائط ، فرأيتها تشير إلى السابعة ، نظرة أخرى إلى حيث هي في السـرير ، فـرأيتـهـا تغطّ في نوم عميق . أخذت حمامي الصباحي ، ارتديت ملابسي استعداداً للخروج إلى العمل ، ويبدو أن حركتي أيقظتها ، فتساءلت على الفور : هل توقفت الحرب؟

– ليس بعد!

– ألم يكتفوا من دمنا؟

– ليس بعد!

قبل مغادرتي المنزل ، سألتها : حبيبي ، أتريدين شيئاً؟

أجابت : شكراً . إلهام على وشك الحضور لمساعدتي .

إلهام ، جارتنا العراقية ، التي ما إن علمت بأن المنزل المجاور الذي كان شاغراً قد سكن ، حتى طرقت الباب بصحبة زوجها لطفي وطفلتهما الوحيدة إيمان ، حاملين معهم طبقاً من حلوى «الكليجة» التقليدية ، وباقة من الزهور ترحيباً بجيرانهم الجدد . وكم كانت دهشتهم كبيرة ، وفرحتهم أكبر حين عرفوا أننا عرب مثلهم . لطفي وإلهام وطفلتهما كانوا من ضمن مجموعة كبيرة من العراقيين الذين غادروا العراق إلى لندن في العام ٢٠٠٥ تحت مسمى «الحالات الصعبة» ، وما زالوا بانتظار أن تقرر الحكومة بشأن منحهم صفة طالبي اللجوء Asylum Seekers ، قبل أن يتمكنوا من الاستقرار النهائي هنا .

لم تتأخر إلهام عن موعدها . كعادتها منذ ما يقارب الشهر ، في الصباح ، توصل طفلتها ، التي أكملت الثانية عشرة من عمرها قبل أيام ، إلى باب مدرستها مشياً على الأقدام ، تقبّلها مودعة قبل أن تعود أدراجها لتعرّج على بيتنا لتطمئن على رهام . تمضيان بعض الوقت في الثرثرة ، واستعراض آخر الأخبار ، وما استجد من تطورات على الساحة اللندنية ، وتمضيان بعضاً آخر من الوقت في تنظيف المنزل ، وإعداد الطعام ثم تذهب لاصطحاب طفلتها من المدرسة وإعادتها إلى البيت .

عند عودتي في المساء ، كانت الألعاب النارية تملأ سماء الشاشة ، والقتلى بالمئات . هدايا العام الجديد تتساقط حمماً ودخاناً فوق رؤوس أهالي غزة ، والحصار أحكم أنيابه الحادّة

مانعاً الفرار إلى مصير آخر غير هذا المصير . أصوات كثيرة تطالب بعقد جلسة طارئة لمجلس الأمن للحصول على قرار بوقف فوري لإطلاق النار ، والدول العظمى تتجاهل تلك الأصوات مانحة إسرائيل المزيد من الوقت لإنهاء مهمتها . . .

أطفأت التلفزيون ، أخفيت جهاز التحكم عن بعد عن متناول يدها . جلست إلى جوارها على طرف السرير واحتضنت كفّها الصغيرة بين يديّ هامساً : إنها ليلة رأس السنة ، ما رأيك أن أصطحبك إلى المطعم الصيني الذي تحبين؟

اعتدلت وأسندت ظهرها إلى الوسائد ثم قالت :يا ليت . . . ولكن . . .

– ولكن ماذا؟

– أخشى من نوبات الغثيان ، الأفضل أن يأتي الطعام إلينا .

قمت إلى الهاتف . اتصلت بالمطعم وطلبت بعض الأطباق من قائمة الطعام المكتوبة على أحد المنشورات الخاصة بالمطعم ، والتي نحتفظ بها لحين الحاجة ، مركّزاً على طبق البطّ الذي تحبه . تحاملت على نفسها ، غيرت ملابسها وارتدت فستاناً من الحرير الأبيض . نزعت القبّعة عن رأسها وارتدت باروكة الشعر المستعار ، لوّنت وجهها ببعض المساحيق التي أزالت شحوبه وأعادت إليه رونقه السابق . توّجهت إلى المطبخ بخطى متعبة ، وجهّزت المائدة بالأطباق والشوك والسكاكين . أخذتها بين ذراعي مبدياً إعجابي بثوبها : ينقصك جناحان وتصبحين ملاكاً!

لم تجب . اكتفت بابتسامة صغيرة .

أضأت عدداً من الشموع ونثرتها بعشوائية في أرجاء الصالون ، وأشعلت الشموع المزروعة في شمعدان فضي على طاولة الطعام . وضعت شريطاً من الموسيقى في جهاز التسجيل وأدرته ، فانبعث صوت موسيقى هادئة ضاعفت من سكون المنزل .

تناولنا عشاءنا على أنغام الموسيقى على مهل ، أسهبتُ أثناءه في الحديث عمّا مرّ بي طوال اليوم محاولاً استنزاف أكبر قدر من الوقت لكي أتخطى بصحبتها عتبات العام الجديد ، وحين لم يتبق ما أخبرها به ، عمدتُ إلى استحضار سلسلة من ومضاتنا الفاصلة : أتذكرين لقاءنا الأول؟ ماذا عن خلافنا الأول؟ طيب ، القبلة الأولى؟

سايرتني في اللعبة ساردة الوقائع والتفاصيل بزخم كأنها وقعت للتوّ . ثم سألتني بدورها : هل تذكر لون عيني؟

كان سؤالاً خبيثاً وقاسيا لم ينطل عليّ . ما كانت ترغب بإجابة ، بقدر ما أرادت أن تمرّر رسالة تنذرني بها من مغبة النسيان لاحقا . فهمت رسالتها على الفور . احتويتها بين ذراعيّ مؤكداً : لن أنسى لون عينيك ما حييت .

انسحبت فجأة من بين ذراعي قائلة : على فكرة ، وصلت صباح اليوم بطاقة في البريد الالكتروني من «لورا» . طبعتها على ورقة ، ووضعتها هناك على طاولة الزينة كي تراها .

تأملتُ البطاقة التي تحمل صورة «سانتا كلوز» وهو يحاول

العبور عبر حاجز في الجدار العازل ، والجندي الإسرائيلي يستوقفه ليسأله عن تصريح المرور .

ابتسمتُ للفكرة ، وقرأت بصوت مرتفع كلمات لورا المكتوبة في أسفل البطاقة بلوعة من اكتشف أن الحلم الذي عاش يترقبه زمناً كاملاً لم يكن سوى وهم زائف :

«أرسل لكما هذه البطاقة من «رام الله» ، من على حافة الجحيم .

كنت على حقّ يا رهام ، لا سلام مع مثل هذا الكيان الهمجي . . .

على أية حال ، أعرف أنه من الصعب علينا تبادل عبارات التهنئة لهذا العام ،

ورغم ذلك أتمنى لكما سنة سعيدة!»

زفرت بأسى ، وعدت لتأمل وجه «سانتا كلوز» الفلسطيني الأسير محدّثا نفسي : لورا ، يا لورا ، أما زلت على عهدك ، مصرّة على تعديل ميزان العدالة المائل ، أم أن رؤيتك للسلام العادل اصطدمت بحواجز التفتيش ، وإسمنت الجدار العازل؟!

على مشارف الساعة الحادية عشرة ، كانت قد استهلكت تماما . أصابتها نوبة من الغثيان والإعياء وضيق النفس ، وعاودتها التشنجات والآلام ، فهرعت إلى كومة المسكّنات ، جرعت ما تيسر منها ثم استلقت على السرير .

لملمتُ الأطباق عن المائدة وغسلتها ، نفختُ في وجه ما تبقى من شموع مشتعلة مخمدا آخر أنفاسها فغرق المكان في

عتمة حالكة ، ألقيت بجسدي على الصوفا ، وبحلقت في العتمة ، أغمضت عينيّ فرأيت العتمة تبحلق بي . رحت أسامرها ، أغمض عينيّ وأفتحهما ، أفتح عينا وأغلق الثانية ، أغلقهما لبرهة ثم أفتحهما فجأة ، لأجدها أمامي في جميع الحالات . تلتفّ حولي حين أفتحهما ، وتغزو أعماقي حين أغلقهما . للمرة الأخيرة فتحت عينيّ فرأيتها تخرج لسانها في وجهي شامتة : أنا اللون الحقيقي للأشياء ، وكل ما عداي هو وهم انعكاس الضوء على الأسطح والأجسام . ثم تمطّت بلؤم مرخية ذراعيها حولي .

مددت يدي خلسة وتحسست علبة السجائر والولاعة ، وما إن نجحت في إشعال سيجارة حتى جفلت ، فكّت ذراعيها من حولي ، وتقهقرت قليلاً عن محيط زهرة السيجارة المتوهجة ، مفسحة لي مشاهدة الدخان وهو يعلو فوق رأسي مشكلاً غيمة هشّة سرعان ما تفسخّت إلى خيوط نحيلة دارت حول نفسها ثم حلّقت عاليا . أشعلت سيجارة ثانية ونفثت المزيد من الدخان في الفراغ ، فتكاثفت خيوط الدخان تدريجيا واقتربت من رأسي مكوّنة حلقة كبيرة على هيئة مشنقة طوّقت عنقي حتى كادت تشنقني .

فززت من على الصوفا مبدداً مشنقة الدخان ، مشيت على أطراف أصابعي إلى حيث أوراقي في غرفة المكتب الصغيرة ، أشعلت مصباح النيون الذي فوق الطاولة ، نظرت إلى كمّ الأوراق المسوّدة أمامي ، فلم أصدّق ما رأيت . أعدت قراءة

بعض الصفحات ، فأرعبتني ذاكرتي . ذاكرتي ، تلك الحقيبة المهملة ، فزعت عندما شاهدت ما بها يندلق أمام ناظري دفعة واحدة ، موجعاً وحارقاً على غير العادة!

أخرجت المزيد من الأوراق البيض ، وضعتها أمامي وتأملتها ، فرأيتني أهيم في فراغاتها على غير هدى ، مثل فلاّح يغرس الأماني في حقول الريح ، يرويها فيضاً من العبرات ، يمضي أيامه في الانتظار ، ثم ينتهي من دون أن يدنو من موسم حصاد .

أمسكت بالقلم الأسود وأكملت ، مستثمراً كون اليوم التالي يوم عطلة . . . .

«عدت من عملي إلى المنزل مساء ، دلفت إلى الصالة فداهمتني رائحة عود البخور الذي تغرسه كل مساء في تراب أصيص نبات الزينة ليلفّ البيت بغلالة شرقية حميمة . وجدتها تعدّ المائدة لوجبة العشاء . رحّبت بي من بعيد وواصلت ما كانت تقوم به . أسرعت نحوها ، ضممتها بين ذراعي وقبّلتها . أحسست بها ترتعش . أمسكت بيدها وأجلستها على «الصوفا» ، وجلست بالقرب منها . أشاحت بوجهها متجنّبة النظر نحوي .

سألتها : ماذا قال الطبيب؟

زفرت بحرقة : لا شيء جديداً ، سيحدّد لي موعداً لإجراء الكشف الشعاعي وأخذ خزعة من . . . الو . . . الورم . . . وغصّت الكلمة في حلقها .

ضـغطتُ على يدها وسـألت : لماذا لم تتـصلي بي بعـد عودتك؟

خرج صوتها متحشرجا : لم أرد إزعاجك . . . ثم لم يكن هناك ما يستحق القول .

تذكرت أنه الثاني من آب ، هذا التاريخ المشؤوم لن يتركني بسلام ، للمرة الثانية يدمغ جبيني بعلامته الفارقة ، للمرة الثانية يطعنني من الخلف . احتضنتها بين ذراعي فصارت تنتحب . مسحتُ على شعرها الكستنائي الكثيف وطمأنتها ، وربما كنت أحاول طمأنة نفسي أيضا وأمنع الخوف من أن يتسرّب إليّ : لا تقدّري البلاء قبل وقوعه . . . أليس من الممكن أن يكون ورما عابرا وينتهي ببضع حبّات من المضاد الحيوي؟

سايرتني بهزّة من رأسها ثم قامت لتأخذ مقعدها على المائدة ، فتبعتها إلى مقعدي .

همست وهي تسكب لي الطعام : لا أصدّق كيف يمكن للحياة أن تبدو شرسة ومعادية في لحظة واحدة فقط .

هززت رأسي موافقا . أعرف هذا الشعور ، بل عشته بحذافيره ، مرّت بي لحظة مشابهة أوقفت عقارب الزمن وغيّرت مسار حياتي في الوقت الذي كنت أظن فيه أن الحظ قد ابتسم لي ، وأن القدر على وشك أن يمسح على رأسي بيد حانية . لحظة واحدة دمّرتني وقلبت عالمي رأساً على عقب .

سرحت أسترجع سمائي الأولى ، ألواني الأولى ،

وأحلامي الأولى . . .

ولدت أنا ، آخر العنقود ، في شقة واسعة في السالمية تضم أما وأبا ، وثلاثة إخوة سبقوني إلى الحياة . أخبرتني أمي أنني كنت منذ صغري دائم التوثب والحركة ، لا أطيق المكوث في مكان واحد . في شهري السادس ابتدعت طريقة فريدة في الحبو تختلف عن حبو سائر الأطفال ، أغرز أصابع قدميّ الطريتين في الأرض ، أرتكز على يدي الصغيرتين ، وأقفز دافعا بجسدي إلى الأمام كالضفدع زاعقا : ويئ ويئ .

وهناك أمام البيت ، امتدت ساحة رحبة ضاقت على طيش طفولتي ، شاركت أولاد الحارة ألعابهم كلها ، من لعبة الحرب إلى «القلول» مرورا بلعبة عسكر وحرامية ، و«الموكسي» . فيها تعلّمت ركوب الدراجة الهوائية ، وبين أسوارها تعلّمت قيادة السيارة وأنا في الرابعة عشرة من عمري ، عندما كنت ألطش مفتاح سيارة أمي وأدور بها دورات عدة فيما هي منشغلة في شؤون المنزل .

لبيتنا سطح أصعد إليه بحجة المذاكرة ، وفي الحقيقة ، أنني كنت أدخن ، وأبصبص على الجارات في العمارات المجاورة . على الجانب الآخر من الشارع تقبع مدرستي الثانوية بمبانيها الفسيحة ، و التي كثيرا ما كنت أثب من سريري ، لأقفز من فوق سورها إلى فصلي مباشرة ، حين كان يرهقني السهر ويستعصي عليّ الاستيقاظ المبكّر للّحاق بطابور الصباح .

وعلى بعد خطوات من البيت ، يسترخي شاطئ أملس

برمال برونزية ، لوحتها الشمس على مهل ، وبحر رائق مسالم في غالب الأحيان ، اتخذته صديقا حميما ، أخوض في مياهه المنعشة ، أتعارك مع أمواجه الواهنة ، أغوص لأقطف من قاعه صدفة أو محارة ، وإن لم أجد فحفنة من الرمال . أمتطي أمواجه بلوح التزلج الخشبي ، أتحدى هيجانه حين يثور فتتقاذفني أمواجه هازئة بي وبلوحي الخشبي ، ويخيل إلي أنني أسمع صوت هديره محذرا : لا تتحداني واتق شرّي ، تعرف أني قد أبتلعك في إحدى نوبات غضبي .

كان لي أمل ، تخيلته ، واعتنيت بتفاصيله الصغيرة ؛ أن أكمل تعليمي الجامعيّ بأي شكل بعد أن حالت وثيقة السفر المصرية دون قبولي في جامعة الكويت . راسلت الجامعات التركية حتى حصلت على قبول في جامعة أنقرة . أمضيت سنتين في دراسة اللغة التركية ، ثم وقع اختياري على جامعة شرق المتوسط في مدينة «فاماغوستا» في الشقّ التركي من قبرص لأن مناهجها تعتمد اللغة الانجليزية . سجّلت في قسم إدارة الأعمال في كلية التجارة ، وصرت أرى حلمي يتحقق أمام ناظري يوما بعد يوم ، وما إن اقترب موعد الفرح حتى فصلني عنه نصل لحظة غادرة ، لحظه واحدة كانت كافية لأن تقطعني من جذوري كشجرة يابسة ، وتزجّ بي في خانة المشردين .

تحت جنح ليل أسود ، فقدت كل شيء ، البيت ، والأهل ، والبحر والذكريات . اجتاح الرئيس العراقي الكويت وأطاح

بجميع أحلامي . فجأة ، وجدتني وحيدا ، مقطوعا في بلد غريب وأنا على أبواب السنة الأخيرة من دراستي الجامعية . لا اتصالات ممكنة مع الأهل ، لا أخبار تصلني أو تصل مني . تنازعتني الظنون خوفا وقلقا عليهم . أمضيت أياما على الحدود ، علّني ألتقي بمن يحمل لي خبراً عنهم . توجّهت للمطار وانتظرت في قاعة القادمين ، ربما تمكّن أحد معارفي من مغادرة الكويت والمرور بقبرص في طريقه إلى جهة ما من هذا العالم . لأيام ، لم ألمح وجهاً مألوفاً . حمّلتُ زميلا لي ، وهو في طريقه لزيارة أهله في الأردن ، رسالة ورجوته أن يعمل على إرسالها مع أي شخص ، أو سائق شاحنة ، أو حتى مهرّب إلى أهلي في الكويت ، وعرفت حين لم يردني أي جواب أن الرسالة لم تصل .

في هذه الأثناء ، كان ثمة حرب أخرى تدور في الخفاء ما بين الزمن وحلمي القديم . صار الوقت هاجسي . أحصي الأيام ، الساعات ، بل الدقائق التي تفصل ما بين الثاني من آب وبين تشرين الأول . كل يوم يمضي من دون أي جديد ، يضمحل حلمي ويذوي . ماذا أفعل؟ إن شقّقت نفسي في العمل ، لن أستطيع توفير المبلغ المطلوب للرسوم الجامعية في بداية السنة الدراسية القادمة .

قبعت في مسكني أتابع الأخبار على سائر المحطات التلفزيونية والإذاعية المتاحة ، فلم تكن الفضائيات قد انتشرت حينها . انتظرت انسحابا للقوات العراقية ، بل تمنيته من صميم

قلبي ، ولم أتوقع أن يصرّ الرئيس صدام حسين على البقاء في الكويت رغم كل التهديدات الدولية ، والحشود العسكرية التي بدأت في تطويقه .

حين تأكد لي إصرار الرئيس صدام على عدم الانسحاب ، قررت أن أذهب إلى مدير مكتب التسجيل وأشرح له الأمر ساخرا من نفسي : أي أمر؟ هل من المعقول أن أحدا في العالم لا يزال غافلا عما يدور على أرض الكويت؟ فكرت فيما سأقول . هل أدخل إليه من مدخل ديني؟ كأن أقول : نحن مسلمون و إغاثة الملهوف من المآثر الحميدة لديننا الإسلامي الحنيف . أم سياسي؟ فأقول : إن من مصلحة تركيا استقطاب جميع الطلبة القادمين من الكويت لأن صدام حسين رجل ذو أطماع توسعيه ؛ وقد يبادر إلى مهاجمة تركيا يوما ما كما فعل مع إيران .

بعد مداولات طويلة مع نفسي ، قررت أن أعتمد أسبابا إنسانية بحتة ، ذهبت إلى مدير مكتب التسجيل وقلت متلعثما : أرجوك ، إني مقطوع ومفلس ، سدّت في وجهي كل طرق الاتصال مع أهلي ، أمهلني إلى أن تنتهي الحرب وسأدفع كل ما يترتب عليّ من رسوم .

لم تنجح جميع توسلاتي ، وما إن أعلن عن تحرير الكويت في شباط من العام التالي حتى كانت السنة الدراسية قد ضاعت ، كما انتهت فترة إقامتي في البلد ، ولولا تدخل المفوضية العليا لشؤون اللاجئين لتجديد إقامتي ستة أشهر

إضافية ، لكنت مرميا على حدود دولة ما حتى هذا اليوم .

في غفلة من وهج المسمّيات والألقاب ، تعثّرت بخانة طالب ، وسقطت في خانة لاجئ . صرت مدرجا على قوائم اللاجئين الصادرة عن وكالات الأمم المتحدة . وبعد كل هذا العناء ، حصلت على شهادة أمّية في اللجوء عوضاً عن الشهادة الجامعية . ورغم علمي الأكيد بأنني لاجئ منذ الولادة ، إلا أن مظاهر اللجوء كانت مبهمة وخفيّة ، لم أشعر بها في الكويت منذ ولادتي وحتى أنهيت المرحلة الثانوية . فبخلاف أقراني من أبناء الجاليات العربية ، تمكّنت من الدراسة في المدارس الحكومية لأن أبي السائق الخاص للأمير جابر الصباح . يوصله في جولاته الكثيرة ، يستقبل كبار زوّاره وضيوفه من المطار ، يؤمن وصولهم إلى القصور أو أجنحة الفنادق . ولا يزال يحتفظ بصورة تجمعه مع الملكة اليزابيث ، ويعتز بها أيما اعتزاز . منذ ذاك التاريخ المنحوس ، أحسست للمرة الأولى بمرارة هذه الكلمة التي فصلتني نهائيا وللأبد عن تاريخي ، وجذوري ، وحتى أحلامي .

بعد وقت ، بات التفكير في توفير مصاريف الدارسة ، ترفا أمام توفير متطلبات الحياة الأساسية من مأوى ومأكل . لملم الزملاء القادمون من الكويت أنفسهم ، تباحثنا فيما يمكن عمله للخروج من هذا المأزق . وضعنا كل ما بحوزتنا من نقود واستأجرنا بيتا واسعا تشاركناه جميعا . صرنا نعمل في المطاعم والحانات ونجمع ما ندّخره لشراء حاجيات المنزل وسدّ مصاريفه .

ضاقت بي الحياة ، ففكرت في العودة إلى الكويت عن طريق الأردن فالعراق . ذهبت إلى السفارة الأردنية في أنقرة للحصول على تأشيرة دخول إلى الأردن ، وحالت وثيقة سفري المصرية دون حصولي على تأشيرة . عندها ، خطر لي أن أدخل العراق عن طريق الحدود التركية مباشرة . ذهبت إلى قاعدة «إنجيرليك» على الحدود ما بين العراق وتركيا ، وتأملت المدى . كل ما ينقصني هو قطع هذه الحدود لأصبح فوق الأراضي العراقية . وفيما كنت جالسا أحرق سيجارة تلو الأخرى بانتظار شاحنة تقلّني عبر الحدود التركية إلى العراق ، أحسست بيد ترّبت على كتفي ، التفتُّ فإذا بضابط تركي يسألني : ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وضحك .

عرفته ، كان زميلا في الجامعة يؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية على الحدود . شرحت له أسباب وجودي ، فدعاني إلى شرب كوب من الشاي في الثكنة العسكرية القريبة . أخبرني بأنني إن خرجت من تركيا ، فلن يكون باستطاعتي العودة إليها ثانية لأن الحدود مغلقة . ونبّهني من أن عودتي ثانية ستتطلب الحصول على تأشيرة دخول جديدة . وما إن حذّرني من نيّة السلطات العراقية تجنيد الفلسطينين في الجيش الشعبي العراقي ، حتى عدلت عن فكرة الهروب نهائيا ، ورجعت إلى فاماغوستا أجرّ اذيال خيبتي .

في فاماغوستا ، تذّكرت أن أمي تحمل الجنسية البريطانية ، ولا بد أن يكون لها قيد في سجل الأحوال المدنية . ذهبت إلى

دائرة الأحوال المدنية في نقوسيا ، فأخبروني أن السجلات القديمة قد تم ترحيلها إلى مخازن بعيدة أثناء الحرب ما بين تركيا واليونان في السبعينات . ذهبت إلى تلك المخازن ، تحايلت على الموظفين بالهدايا تارة ، وبالكلام المعسول تارة أخرى إلى أن سمحوا لي بأن أفتّش بنفسي في المخازن . نبشت في كل السجلات القديمة حتى وجدت ضالتي .تقدمت لوزارة الداخلية بطلب الحصول على الجنسية القبرصية . بعد جهد منحوني إقامة مؤقتة إلى أن يتم التثبت من أوراقي .

فجأة صار الوقت عدوّي اللّدود ، وبعد أن كانت حياتي حافلة ومليئة بالأصدقاء والكتب والمحاضرات ، وجدت نفسي وحيدا لا أمارس غير مهنة الانتظار ، والوقت يمرّ بطيئا وطويلا على المنتظرين . أذهب كل أسبوع لمتابعة ما استجد على معاملتي في وزارة الداخلية حتى ضاق بي الموظفون . نصحني أحدهم بأن أغيب لفترة طويلة ، فالإجراءات القانونية تحتاج إلى وقت طويل ، وأضاف : إشغل نفسك ، بالتأكيد لديك ما يشغلك .

ثم أنهى كلامه بموعظة بدت لي غاية في الغباء : الإنسان الذي يستثمر وقته بكفاءة هو إنسان عبقري!

لعنته في سرّي : أيها اللعين ، من قال لك بأنني مشغول أو عبقري؟ أنا صعلوك ، ولا أجد ما يدفعني إلى استغلال وقتي استغلالا عبقريا كما تريد .

كل يوم أصحو من النوم ، أرشق وجهي بحفنة من الماء ،

أرتدي ثيابي ثم أجلس في إحدى المقاهي لا أفعل شيئا حتى غروب الشمس . للوهلة الأولى ، بدوت حقا كمن لا يفعل شيئا ، إلا أنني في الواقع كنت أحرق مئات من السجائر ، آكل السندويشات ، أقرأ الجريدة ، أدور حول الأماكن ذاتها مرّات ومرّات قبل ان أختفي لأفعل اللاشيء .

ما الذي يمكنني فعله بمثل هذا الرأس الفارغ؟ لا خطة ، لا فكرة ترد إلى رأسي . أي أحمق بإمكانه أن يحمل رأسا فارغا ويجلس من دون أن يفعل شيئا ، ولكن العاقل مثلي ، عليه أن يملأ رأسه بفكرة ما قبل أن يجلس ليفعل اللاشيء! . الناس من حولي ، والذين مصيرهم لا يشبه مصيري ، مفعمون بالخطط والانشغالات ، بينما حالي يشبه حال إله إغريقي ، مشغول بفن الكسل كمهنة أزلية!

أدور في الطرقات ، أتسكّع على شاطئ البحر ، فيهدر صوته في أذني شامتا : أنت ملعون ، سيطول تيهك ، وستظل حياتك رحلة بلا ميناء ، وترحالا من غير وصول .

تجاهلته ومضيت في سبيلي ، إلا أنه لم يمض في سبيله ، بل ظل يلاحقني بهديره : أنت ملعون ، ملعووون . سددت أذني بأصابعي حاجبا صوته عني فطنّ صوته هادرا داخل رأسي : أنت ملعون . . . رحلة بلا ميناء . . . من غير وصول . . .

ثرت في وجهه ناقما : «بوسيدون» . . .أيها الأحمق . . . لست «عوليس» لتصب عليّ لعنتك! لم أعاندك يوما حتى تمقتني إلى هذا الحد . . . سأقتلك!

هجمت عليه وخضت في مياهه بكامل ثيابي ، تصارعت مع مياهه ، تعاركت مع أمواجه ، لويت عنقها بيدي ، عضضت فيها بأسناني ، مزّقتها بأظافري صارخا به : كفى . . .كفاك انتقاما مني .

ما إن هدأت ثورتي وخرجت من الماء مرتجفا ، حتى وجدت رجلا يضع حراما صوفيا فوق كتفيّ . تركني جالسا على الرمال لبعض الوقت ، ثم أشار لي بيده أن أتبعه . كان رجلا في حوالي الخمسين من العمر ، ببشرة برونزية لامعة ، وشعر أشقر يخفيه تحت قبّعة صغيرة خاصة بالصيادين . تغطي لحية خفيفة نصف وجهه . خطا أمامي متعكزا على عصا تفوقه طولا ، يغرسها في رمال الشاطئ بيد قوية ، ويتبعها بقدم ثابتة . تبعته إلى حيث كوخ خشبي متواضع . جلست على أحد المقاعد الخشبية ، فجلس قبالتي على مقعد آخر . أخرج سيجارة من علبة السجائر الملقاة على طاولة صغيرة وسأل : هل لديك ولعة؟ أخرجت ولاعتي ، جفّفتها جيدا وأشعلت له سيجارته . نظر إليّ نظرة طويله وهو يشدّ نفسا من السيجارة وقال : إن كنت تملك ولعة ، فلم تعيش في الظلام؟

أطرقت قليلا أفكر فيما قال ثم همهمت : لأني الحصان «بيغاسوس» الفلسطيني . . . منذور لأن أظل محلّقا ما بين السماء والأرض!

ربّت على كتفي في ودّ وعرض عليّ سيجارة أخذتها شاكرا . أخرج زجاجة من العرق وصبّ قليلا منه في كأسين

ملأ نصفيهما بالماء ، حرّك المزيج بإصبعه ، ثم ناولني إحداها ووضع الأخرى على منضدة إلى جواره . مدّ لي يده مسلّماً ومعرّفاً بنفسه : أنا «ياني» يوناني الأصل ، و هذا الكوخ مأواي ومورد رزقي .

أشار إلى زاوية في طرف الكوخ وتابع : أتخذ من هذه الدكّة سريرا ، وأدير ما تبقى منه حانة و مطعما صغيرا . أصيد السمك في النهار بقاربي الصغير ذاك ، وأشويه للبحّارة الذين يتوافدون إلى هنا مساء لقضاء وقت لطيف في السهر ، وأكل السمك والرقص والغناء على أنغام الماندولين .

بتّ تلك الليلة في كوخ ياني . في الصباح الباكر ، همس لي قبل أن يبحر على متن مركبه الصغير لصيد السمك : التفت حولك تجد الحياة ، ربّما يحمل الغد لك جديدا .

عدت إلى جولات التسكع وفعل اللاشيء بانتظار ما قد يحمله لي الغد . والغد يأتي ويمضي من دون أي جديد . وقفت يوماً قبالة ياني وصرخت به : أين هي الحياة التي تعدني بها؟ دخت لكثرة ما تلفتّ حولي ، لم يتبق خرم في هذه الجزيرة إلا وبحثت فيه . متى يأتي هذا الغد؟

أشار بإصبعه إلى رصيف الميناء ، ومضى .

في إحدى جولات تسكّعي ، مررت برصيف الميناء فظن أحد التجار أنني عتّال ، ناداني وطلب مني نقل هرم ضخم من الصناديق إلى شاحنة تقف إلى جوار الرصيف . نقلتها ، فنقدني مبلغا من المال . واظبت على المكوث على الرصيف

طمعا في عمل مشابه إلى أن رأيت رجلا يشير لي من خلف نافذة مكتب لتخليص البضائع . توجّهت إليه ، فسألني عن حالي . شرحت له حالي بالتفصيل ، وحين علم أنني أنهيت ثلاث سنوات من الدراسة الجامعية ، عرض عليّ العمل لديه في المكتب . شرح لي ما عليّ القيام به وأضاف : راقبني وستتعلم المهنة بسرعة . رافقته في جولاته على السفن المحمّلة بشتى صنوف البضائع ، تبعته إلى مكتب الجمارك ، راقبته وهو ينهي معاملات التخليص مع مندوبي الجمارك وأصحاب البضائع ، تتبعت كل شاردة وواردة تخصّ التعليمات الخاصة بتجهيز بيانات الشحن ، وأوراق التخليص حتى حفظت الخطوات والإجراءات عن ظهر قلب ، وصرت ماهرا في أعمال تخليص البضائع . عندما قبضت راتبي الأول ، اشتريت قنينة من العرق وكيلو من اللحم وهرعت إلى كوخ ياني ، شوينا اللحم والتهمناه مع كؤوس العرق ، غنينا ورقصنا في احتفال مهيب إلى أن شقشق الفجر .

صار الكهل صديقي الحميم ، بل صديقي الوحيد . ساعدته في أعمال الطهو ، وشاركت البحّارة سهراتهم وأوقات سمرهم التي لا تنتهي . علّمني «ياني» كل ما هو يوناني من رقص ، وعزف على الماندولين ، وطريقة صنع الأطباق اليونانية الأصيلة .

كان إلى جوار كوخ «ياني» ، كوخ آخر انتقل صاحبه للإقامة في مكان آخر ورغب بتأجيره ، فاقترح «ياني» أن

يتوسط لي عند صاحب الكوخ ليؤجّرني كوخه بسعر مناسب . أستـأجرت الكوخ ، وجـاورت ياني . في أحـد الأيام وصلتني رسـالة عن طريق زمـيل من زمـلاء الجـامـعـة الذين كـانوا في الكويت تخـبـرني أن أهلي يعـيـشـون بأمـان في بريطانيـا ، وأن بإمكاني الاطمئنان عليـهم ومكالمتـهم على رقم هاتف دوّنه في رسـالتـه . اتصلت بالرقم فـسـمعـت صوت أمي مزغـردا ، دافـئـا وحنونا ، ولم يكن صوت أبي أقلّ لهفة وبهجة .

في إحدى ليالي السمر في كوخ «ياني» ، وقد كان يعبث بأزرار المذياع قبل أن يستقر على محطة تروقه ، سـمعت جملة عابرة باللغة العربية فسارعت إلى تثبيت مؤشر المذياع على تلك المحطة . كـانت إذاعة محليّة تبث باللغة العربية ، غير أن المذيع يصرّ على قتل اللغة بأخطائة اللغوية والنحوية .

علّقت ناقمـا : هذا الرجل لا يعـرف العـربية ، كـيف عـيّنوه مذيعا في المحطة؟

اقترح ياني : ما رأيك أن تأخذ مكانه؟

بدت الفكرة دنيئة في بادئ الأمر ولكنها جديرة بالمحاولة . ذهبت إلى مقر الإذاعة ، استفسرت عن وجود شاغر فطلب إليّ الموظف المسؤول أن أملأ اسـتـمـارة طلب وظيـفـة وأتركـهـا لدى السكرتيرة ، فـفـعلت . عـدت إلى عـملي في مكتـب التـخليص ونسيت الأمر .

بعد ما يقارب الشهرين ، حضرت ثلّة من رجال الأمن إلى مكتب التخليص للسؤال عني . ارتاب مدير المكتب وخشي أن

يكون وراء هذه الزيارة مصيبة ما ، أرسل لاستدعائي والشّك ينهشه .

حين قابلتهم ، بادرني الضابط بالسؤال : أنت وليد فارس؟

أجبت : نعم أنا .

– هل تقدمت بطلب التحاق بوظيفة معدّ برامج في الإذاعة العربية؟

– نعم .

ابتسم الضابط مبددا مخاوفي شارحا : إنه إجراء روتيني نجريه للتحقّق من سجلّك الأمني ، نريد استيضاح بعض المعلومات فقط .

أجبت بارتياح : ليس لديّ أية سوابق ، أنا رجل في حالي .

شكرني الضابط وغادر .

بعد أسبوع وصلتني رسالة تخبرني عن قبول المحطة تعييني معدّا للبرامج في القسم العربي للإذاعة . غمرتني الفرحة واستبدت بي الحماسة . تعرفت على زملائي في العمل ووضعنا خطة تفانينا في تنفيذها . أعددنا سلسة من الحلقات تغطي أخبار الجالية العربية في قبرص ، ورصد الزيارات التي يقوم بها مسؤولون عرب ، ومتابعة المظاهرات التضامنية مع أطفال الحجارة في فلسطين ، إلا أنني كنت أتميّز من الغيظ كلما سمعت صوت المذيع الكردي صاحب الأخطاء النحوية يقرأ نشرة الاخبار بلغتة العربية المشوّهة ، إلى أن كان اليوم الذي تغيّب فيه المذيع عن

الحضور فما كان من مدير المحطة إلى أن طلب مني أن أسد مكانه ، جلست في غرفة البث منتشيا باستفرادي بجهاز الميكرفون ، قبلته قبلة خاطفة أمام نظرات التعجب المطلة من عينيّ مراقب الصوت ، قرأت نشرة الأخبار جاهدا في منح صوتي بصمة مميزة ، أثنى على تميّزها مدير المحطة ثناء أهّلني فيما بعد لأن أتناوب والمذيع الكردي قراءة نشرات الأخبار .

بعد ثلاث سنوات من الانتظار حصلت على الجنسية القبرصية . لم أعد لاجئاً ، صار لي رقعة من الأرض تؤويني ، وصار النوم يتسرّب إلى جفوني طواعية ومن دون أدنى عناء ، ابيضّت أيامي ، وعبقت لياليّ برائحة البحر والسمك وأنغام الماندولين ، أحببت عمري من جديد ورحت أستكشف أرجاء الجزيرة الصغيرة ، وطني الجديد ، بشغف بالغ ، لكن الأيام الجميلة لم تطل كثيرا . بعد أقل من سنة تم استدعائي لأداء الخدمة العسكرية ، ودارت بي الدنيا من جديد .

ذهبت إلى العنوان المدوّن في الاستدعاء وأعلنت عن نفسي ، فأحالوني إلى الطبيب لإجراء فحص اللياقة البدنية . ولما كانت لياقتي البدنية غير مشكوك في صحّتها ، أمروني أن أسلّم نفسي إلى معسكر «فاماغوستا» بعد أسبوعين . علمت من الضابط أن فترة خدمتي ستنخفض من ثمانية عشر شهراً إلى ثمانية أشهر فقط ، بسبب دارستي الجامعية وبسبب تمكّني من اللغة التركية ، غير أن خدمتي غالبا ما ستكون في المناطق الحدودية النائية .

عدت إلى كوخي وأنا أفكر في الأيام القليلة الباقية لي من الحرية مستسلما لقدر لا يمكنني تغييره . على باب الكوخ ، وجدت إشعارا من البنك بوصول حوالة مالية . ذهبت إلى البنك وصرفت الحوالة التي أرسلها أبي وكانت بقيمة ثلاثمائة دولار . فكرت فيما يمكن فعله بهذا المبلغ . هل أدّخره لأيامي القادمة في المعسكر ، أم أستنفده في ما يروقني من سبل اللهو والعبث قبل ان أكف عن الحياة وأدفن في ثكنة عسكرية نائية؟

قرّرت أن ألهو قليلا . ذهبت إلى الكازينو وفي نيّتي ان أخسر المبلغ بكامله . جلست أراقب اللاعبين ، متتبعا نظرات الفرح في عيون الرابحين وعلامات الخيبة على وجوه الخاسرين . دفعتني قلّة الحيلة وعدم الاكتراث إلى المشاركة . قرّرت ان أبدأ بمبلغ صغير في لعبة الروليت . استبدلت خمسين دولاراً «بفيشات» اللعب الملونة ، وضعتها كلها على دستة الأرقام الأولى التي تربح ضعف المبلغ ، فربحت وتضاعف المبلغ إلى مائة دولار .

التفت حولي فرأيت امرأة تتلألأ بثوب برّاق يكشف عن نصف نهديها العامرين ومساحة وفيرة من ساقيها الطويلتين . امرأة فاتنة ، كاملة الأنوثة . بحلقت فيها ناسيا المبلغ الذي ربحته في مكانه على الأرقام ذاتها محدّثا نفسي : لا بد أن تكون هذه المرأة خاتمتي لهذه الليلة ، ذكرى أقتات عليها حتى نهاية خدمتي العسكرية . رمقتني بنظرة ازدراء ، وأزاحت خصلة من شعرها الأشقر الطويل عن عينها .

ربح المبلغ الذي نسيته في مكانه مرة ثانية وثالثة وذهني مشغول في طريقة تقرّبني من تلك المرأة ، ولم أكتشف أن المائة دولار قد أصبحت ثمانمائة حتى نبّهني إلى ذلك صوت الرجل الذي يدير آلة الروليت مبتهجا : هيه . .حسنا فعلت!

لم أبتهج بالنتيجة ، خاصة وأن هدفي من اللعب كان خسارة المبلغ لا مضاعفته . لملمت «فيش» اللعب الملونة في صفين أمامي ، بحلقت فيها برهة ، ثم قسمتها إلى نصفين . وضعت النصف الأول على الدستة الأولى ، والنصف الثاني على الدسته الثالثة مصرّا على خسارة ماحقة ، وأمام دهشتي ربحت الدستة الثالثة وصار المبلغ ألفاً وستمائة دولار .

غيّرت طريقة اللعب . وضعت ما قيمته ألف وخمسمائة دولار من «الفيش» على اللون الأحمر عوضا عن دستة الأرقام ، فربح ثلاثة آلاف أخرى مضاعفا دهشتي واستيائي . تلك اللحظة ، توجّهت نظرات جميع اللاعبين نحوي ، بما فيها تلك المرأة ، ثم اقتربوا مني وطوّقوني . فرحت ، ها قد نجحت أخيرا في لفت انتباهها .

جمعت «الفيش» كلّها ووضعتها على الدستة الثانية أمام اعتراضات الذين أحاطوا بي لمتابعة مسار اللعبة . كنت قد حسمت أمري على التخلص من المبلغ نهائيا ، غير أن الحظ كان قد حسم أمراً آخر . ضجّت القاعة بتهليلات المتابعين حين ربحت ثلاثة أضعاف المبلغ وصرت أملك ما يفوق العشرة آلاف دولار .

حملت ما ربحت من فيش وذهبت لاستبدالها من الصندوق ، دسست النقود في جيب سترتي وتوجهت إلى البار . طلبت فنجانا من القهوة المرّة كي أستعيد وعيي بعد كل الذي كنت قد دلقته في جوفي من كحول ، فإذا بالمرأة بثوبها البرّاق تتبعني . جلست إلى جواري هامسة : حظك قوي هذه الليلة!

نظرت إليها في غير تصديق وقلت : أنا محظوظ فقط لأنك إلى جواري .

وما إن هممت بدعوتها لتناول شيء ما ، حتى تناهت إلى مسامعنا أصوات صاخبة صادرة من الجهة التي تجتمع بها الشلّة التي كانت المرأة برفقتها ، ويبدو أن وجودنا معا لم يعجبهم ، أو أن وجودي بحد ذاته بدا تهديدا لأحدهم . أرسلوا إليها امرأة سحبتها بعيدا عني وأعادتها إليهم ، غير أنني كنت قد وقعت قتيل عطرها ، ونظراتها ، ونهديها المتوثبين من فتحة ثوبها البراق . فكرت أن أدخل في عراك مع شلّتها ، وأذهب إلى المعسكر بكسر في أحد أضلعي ، فيؤجّلون خدمتي لشهر أو شهرين ، ثم عدلت عن الفكرة مقنعا نفسي بأن العشرة آلاف دولارا التي بحوزتي ستمكنني من الحصول على امرأة أجمل منها .

في الرابعة صباحا ، توجّهت إلى موظف الاستقبال وطلبت غرفة ، فأوضح لي أن الكازينو يوفر غرفة مجانية للاعبين . دخلت غرفتي وألقيت بحزمة المال على السرير

وجلست إلى جوارها مفكّرا . أكل هذه النقود لي؟ ماذا أفعل بها وأنا في طريقي إلى المعسكر؟

فجأة ، وجدت يدي ترفع سماعة الهاتف وتطلب رقم الاستعلامات المدون على ورقة صغيرة إلى جوار الهاتف . ما إن سمعت صوت الموظف حتى طلبت إليه أن يوصلني بحجوزات المطار . جاء صوت مسؤول الحجوزات بعد ثوان قليلة ، فاستفسرت منه عن أول طائرة إلى اسطنبول ، وعما إذا كان هناك مكان شاغر . بعد برهة ، أخبرني أن الطائرة المتوجهة إلى اسطنبول ستقلع في حوالي الساعة السابعة والربع صباحا ، وأنه لا يوجد أماكن شاغرة على متنها .

زفرت بتوتر وسألته : ما اسمك؟

أجاب :بسيم .

قلت بتأنّ : اسمعني جيدا يا بسيم ، في يدي مائة دولار مكتوب عليها اسمك ، هي لك إن دبرت لي مكانا على تلك الطائرة .

أجاب لاهثا : اتفقنا .

بعد نصف ساعة بالضبط كنت أستقل سيارة أجرة في طريقي إلى كوخي . لملمت أوراقي الثبوتية والشخصية وما استطعت وضعه في حقيبة يد صغيرة ، وعرجت على ياني . طرقت باب كوخه حتى استفاق من النوم فاتحا لي الباب بعينين نصف مغمضتين .

قلت مودعا : آن الأوان يا صديقي . . . إني راحل .

استدار عائدا إلى سريره وهو يقول : بإمكانك الرحيل أينما تريد ، ولكنك حتما عائد .

في الطريق إلى المطار كان قلبي ينزف . احتضنت البحر والرمال ، والطرقات بعينيّ مودعا ، وحفرت وجه ياني في مخيّلتي إلى أن تصدق نبوءته .

في المطار ، توجهت على الفور إلى مكتب الحجوزات ، وسألت عن بسيم . نقدته ثمن التذكرة والمائة دولار ، قبضت على التذكرة ، واتجهت إلى قسم الجوازات . ختم مسؤول الجوازات وثيقة سفري المصرية بختم الخروج من دون ان ينتبه أنني مطلوب للخدمة العسكرية ، وللمرّة الأولى في حياتي أحسست بأن لتلك الوثيقة قيمة ما . في مطار اسطنبول ختم مسؤول الجوازات جواز سفري القبرصي بختم الدخول . وصلت اسطنبول ، وأسرعت إلى منطقة «اكسراي» إلى حيث مطعم قديم اعتدت ارتياده مع أصدقائي في الجامعة ، كلما سنحت لنا الفرصة للتسكّع في أرجاء اسطنبول . تناولت وجبة إفطار شهية ، بل الأشهى منذ ما يقارب الأربع سنوات ، متلذذا بطعم حريتي .

لأسابيع ، ظل هاجس مخيف بأن السلطات القبرصية تطاردني ، ينغص عليّ حريتي . فكرت في طريقة أرحل فيها إلى حيث عائلتي في بريطانيا . ذهبت إلى السفارة للحصول على تأشيرة سفر فأخبروني أن عليّ أن أتقدم بطلب الحصول على التأشيرة من قبرص . خرجت من السفارة لا ألوي على

شيء . فكّرت في العودة إلى قبرص ومواجهة مصيري مهما كان ، فلن يكون أسوأ مما أنا فيه من حيرة وضياع .

على ناصية الشارع اقترب مني رجل ، عرف ما بي من حيرتي وشرودي .

همس في أذني : هل رفضوا منحك التأشيرة؟

لم أجب ، فتابع : لا تحزن . . .

تحاشيته وهممت بمتابعة المسير ، الا أنه سارع إلى القول : سأوصلك إلى حيث تريد من دون الحاجة إلى تأشيرة .

توقفت وواجهته : أنت نصّاب . . .

قاطعني : يمكنك أن تتأكد بنفسك .

سألته وقد استبد بي اليأس : كيف؟

قال : اتبعني .

تبعته إلى مكان قرب ميناء اسطنبول حيث كان هناك شباب آخرون ينتظرون . بعد دقائق وصلت شاحنة كبيرة اختفى أسفلها ثلاثة شبان قبل أن تنطلق ، فعرفت أنها إحدى الشبكات التي ذاع صيتها في تهريب البشر عبر الحدود بواسطة الشاحنات .

سألني الرجل : هل صدّقت؟

أومأت بالإيجاب ، ثم سألت : هل بإمكانك إيصالي إلى بريطانيا؟

أكّد بهزة من رأسه وأضاف : نوصلك إلى مدينة «دوفر» مقابل ثمانية آلاف دولار .

طلب مني الحضور إلى ميناء اسطنبول في صبيحة اليوم التالي . وهناك حشرت مع آخرين في شاحنة بين أقفاص البضائع لإخفائنا عن عيون ضباط التفتيش . بعد ذلك أحسست بالشاحنة تصعد فوق عبّارة ، وبعد أن أبحرت العبارة في البحر ، كان بمقدورنا التحرك على مساحة محدودة من الطابق السفلي فقط خوفا من افتضاح أمرنا . بعد مرور ستة أيام من الإبحار ، رست العبارة في ميناء لم أستطع تمييزه ، إلا أنني خمّنت أنه ميناء إيطالي . حين رست السفينة ، وسمعنا أصوات مفتشي الميناء على متنها ، تقوقعنا حول أنفسنا بين الصناديق حابسين أنفاسنا إلى أن اجتازت الشاحنة إجراءات التفتيش .

بعد أن غادرنا الشاحنة بأمان ، عرفت أن الميناء الذي رست فيه السفينة كان ميناء فرنسيا . وهناك تم تسليمنا إلى سائق «مني باص» أوصلنا إلى باريس ، ومنها استقللت القطار إلى مدينة «كالاس» في أقصى شمال فرنسا على بحر «المانش» . بعد أيام من الانتظار في مخيم خاص بالمهاجرين ، تمكّنت من العبور على متن قارب صغير إلى «دوفر» ، وكنت قد أنفقت كل ما بحوزتي من نقود أثناء الرحلة .

أكملت وجهتي إلى لندن سيرا على الأقدام ، حاملا فراشي داخل حقيبة فوق ظهري ، وحين كان ينهكني التعب كنت أشير للشاحنات المارة ، فيقلّني بعض سائقيها من مكان إلى آخر حتى وصلت إلى منزل والدي في لندن . فتح أبي

الباب دون أن يتبين ملامحي . أدار ظهره حانقا ظانا أنني وائل : أليس معك مفتاح؟ لم لا تفتح الباب؟

دخلت . ألقيت بحقيبتي الصغيرة على الأرض قبل أن ينتبه لوجودي أحد . دلفت إلى حيث أمي في المطبخ ، وطبعت على خدّها قبلة اشتمّت عبرها رائحتي . أدارت ظهرها وواجهتني ، وما إن وقع بصرها عليّ حتى كاد يغمى عليها من شدة الفرح ، بينما تسمّر أبي عند الباب من دون حراك حين استوعب أنني وليد ولست وائلا .

***

التفتُ نحوها . هززتُ رأسي وقلت : هناك مقولة إنجليزية أستحضرها دائما في مثل هذه المواقف .

أشارت بيدها مستفسرة ، فتابعتُ : «بعض الناس ينتظرون حلا سحريا ، وبعضهم يتقبل الواقع كما هو ، ولكن إياك أن تستلقي وتترقب الموت وإلا فقدت براءتك» .

تفكّرت برهة ، ثم عقّبت : يعني ، مغزى تلك المقولة هو أن نتحدى الألم والمرض ولا نستسلم له لأننا أهل للحياة .

أكدتُ لها : تماما .

بينما داخلي يؤكد أمرا مغايرا : أتواسيها أم تواسي نفسك بتلك المقولة؟ تعرف ما تحسّ به ، تتذوق مرارته على لسانك ، ويغصّ به حلقك ، فلا تلق بأوجاعك يائسا إلى السنام الذي فوق ظهرك . ثم منذ متى تصدق تلك المقولات البلهاء؟ إنها «كليشيهات» جاهزة واظبت على البحث عنها وحفظها إلى أن

تحين اللحظة المناسبة لإطلاقها . لا يمكنك أن تفقدها بعدما أمضيت عمرا في البحث عنها . تمسّك بها جيدا ، فهي النجمة القطبية في ليل منفاك الطويل ، تغمز لك بألا ارضاً لك إلا صدرها ، ولا وطناً لك إلا عيناها ، ولا قبراً لك إلا ظلّها .

قفزت من مقعدي وفي نيّتي أن أرسم ابتسامة فوق وجنتيها مقترحا : سنذهب إلى السينما . ما رأيك لو نشاهد فيلم «ماما ميا»؟

قالت بتثاؤب : أليس هذا اسم أغنية لفرقة «آبا»؟

أجبت بحماسة : بالضبط . هو فيلم غنائي يحاول أن يصور ما وراء أغنيات فرقة «آبا» من حكايات . . . وتصوري انه من بطولة الممثلة «ميريل ستريب» .

نفت ذلك قائلة : ميريل ستريب لا تغني . . .

قاطعتها مشجعا : سترين بنفسك .

باستسلام مريب ، خلعت ثيابها واستبدلتها ببلوزة سوداء ذات فتحة واسعة تكشف عن شق نهديها ، لم أرها من قبل وبنطلون «جينز» . صفّفت شعرها ، وضعت قليلا من مساحيق التجميل فوق وجهها ، ورشتين من العطر عند عنقها ورسغها ، ثم حملت حقيبتها ووقفت عند الباب .

اشترينا بطاقتين في عشر دقائق ، واستغرقنا الحصول على كيس كبير من البوشار وزجاجة من الماء عشرين دقيقة من الوقوف في طابور طويل أمام «الكانتين» . أخذنا مقعدينا في صالة العرض وتسلينا بحبات البوشار إلى أن بدأ الفيلم .

أحسّ بها إلى جانبي غارقة في عتمة القاعة ، تضحك وتبكي وفقا لأحداث القصة . مع نهاية الفيلم ، أضيئت القاعة وبدأ الحضور بالمغادرة بينما هي تتمسك بمقعدها تتوسّل كطفل صغير : please, please ، أريد البقاء ومشاهدة الفيلم مرة أخرى؟

سحبتها من مقعدها ودفعتها أمامي باتجاه باب الخروج شامتا : هل صدقت الآن؟

وهي لا تكف عن الثرثرة : رائع . . . رائع فعلا . أتدري؟ تفوّقت «ميريل ستريب» على نفسها في هذا الفيلم . . . لا أصدق أنها ترقص وتغني بهذه الخفة وقد تجاوزت الستين . . .

عدنا إلى البيت ، خلعت ثيابها وتوجهت إلى الحمام . استحممت ، وخرجت وهي ترتدي قميص نوم شفيف لا يكاد يستر ما تحته . اندّست بالقرب مني في السرير . تحرّشت بي . داعبت عنقي وصدري بأناملها ، ثم اعتلتني وغمرت وجهي وعنقي بقبلات سريعة ، احتويتها ملتهما شفتيها . ضاجعتني بشبق لم أعهده فيها من قبل ، وبعد أن انتهت انقلبت على ظهرها باكية .

استويت في السرير ، أشعلتُ سيجارة وأسندت ظهري إلى الوسائد مفكرا . بغتة ، داهمني الخوف وبدت فكرة أن تفقد أحد ثدييها مفزعة للغاية . يا إلهي! ماذا سأفعل حينها؟ وقبل أن تأخذني الأسئلة في اتجاهات شتى قررت تجاهلها مقنعا نفسي بأن كل ما يجري ، ليس أكثر من أمر عارض سيزول بمسحة مرهم ، لن أسمح بانتقال ريبتها إليّ ، فالريبة داء معد .

أردت أن أهمس لها بكلمات مشجعة : أحبك كما أنت ، وكيفما صرت ، ولن يغيّر أي مرض من حبي لك . ولكني خشيت ألا أتمكن من الوفاء بوعدي هذا لاحقا ، فذهبت إلى النوم مؤكدا لنفسي بأن احتمال أن تفقد ثديها فكرة مرفوضة أساسا» .

«أعـدي لي الأرض كي أسـتـريح
فـــإني أحـــبك حـــتى التـــعب
صـــبــاحك فــاكـــهـــة للأغــاني
وهـذا المـســـــــــاء ذهـب . . .»

محمود درويش

(٣)

لليوم الرابع عشر على التوالي ، لا يزال القصف مستمرا .

لم يبق حجر على حجر ، لا مئذنه تكبّر بذكر الله ، لا مدرسة أو مشفى . لم يأمن الطير و لا الشجر ، حتى المقابر قصفت ، وبعث الأموات من قبورهم أشلاء ، كما لم تسلم جثة شهيد ملقاة على قارعة الطريق من رصاصة في الرأس . . .

كنت أظنها نامت ، اكتفت من تفقد الشهداء وحفظ أسماء المنكوبين ، انحنيت لأصلح من شأن الوسادة تحت رأسها فأمسكت بيدي . ضغطت عليها بما تبقى لها من قوة وقالت بصوت لا يخلو من تصميم : عندما أموت ، تبرّع بساقيّ لجميلة ، وبعينيّ للؤي ، وبذراعيّ لشهد ، تبرّع بكل ما يمكنك التبرع به لهؤلاء الأطفال ، لا تبق لهذا السرطان عضوا واحدا من جسدي يقتات عليه . . .

وكأن وصيتها الأولى لم تكن كافية ، حتى تحمّلني وزر توزيع أطرافها على المحتاجين .

داعبتها قائلا : أتظنين بأني سأفتح من جسدك جمعية خيرية؟! ألا يكفي أن الدول العربية قد تحولت إلى جمعيات

إغاثة من أجل غزة؟

أمسكت بيدها وربتّ عليها مطمئنا ، مسحت على رأسها بكفي ، وهدهدتها حتى استكانت .

حين انتظم تنفسها ، سارعت إلى الانفراد بأوراقي ، قرأت الصفحة الأخيرة ، فأحسست بالدم يتدفق إلى رأسي . استعضت عن دلّة القهوة بزجاجة من النبيذ الأحمر ، وقطع من البسكويت الجاف . واصلت الكتابة متقوّتا على لحم المسيح ودمه . . .

«واظبت على الاتصال بها بين فترة وأخرى مستفسرا عن أحوالها ، ظانّا أن الوحدة والغربة ستفتكان بها بعيدا عن مدينتها وأسرتها ، غير أنها كانت تبدد شكوكي وتضاعف من حيرتي عند كل اتصال . تمطرني بسيل من الأخبار عن صداقات جديدة ، أو اكتشافات مثيرة ، أو زيارات لأماكن لم أصلها يوما رغم إقامتي هنا لأربع عشرة سنة .

أغيب عنها لأيام ، أقمع رغبة ملحّة بالاتصال بها عساها تبادر إلى الاتصال بي يوما . يطول انتظاري فأقوم بالاتصال لمرة ثانية وثالثة . . . كيف أجعلها تفتقدني؟

ذات مساء ، أرسلت لها رسالة قصيرة عبر الهاتف المحمول متسائلا : hello delivery girl ,

are you still alive ?

اتصلت وكرّت على مسامعي أعذارها في نفس واحد : آسفة ، أعرف أني مقصّرة ، ولكن كما تعرف الشهر الأول محشو بكثير من المشاغل . هؤلاء الإنجليز لا يتيحون لنا فرصة

لأخذ أنفاسنا ، ينهكوننا بزيارات للتعرّف على مرافق الجامعة ، و في لقاءات لشرح البرنامج الدراسي ، ودورات للتعامل مع أقسام المكتبة ، واستعمال المكتبة الإلكترونية . . .

قاطعتها : كيف أنت؟

ضحكت وقالت بتمهل : بخير . وأنت؟

– ضجر .

– كيف تشعر بالضجر في بلد لا تهدأ مثل هذه؟ لا أكاد أجد وقتا لكل ما أريد فعله!

– لأني موظف ، حياة العمل تختلف عن حياة الجامعة . كدّ وتعب طيلة النهار ، وكل ما أتمناه في الليل هو سرير يضمّني حتى اليوم التالي .

– ومتى تعيش؟

– في عطلة نهاية الأسبوع . ماذا عنك؟

– تعرفت على شباب وشابات في مقتبل العمر ، رعد من الأردن ، وعصام من غزة ، وبنت لطيفة جدا اسمها سمر ، نصفها من غزة والنصف الآخر من بولندا ، وفتاة أمريكية في الغرفة المقابلة لغرفتي تدعى «لورا» . . . كما أنني سجلت في النادي الرياضي في الجامعة .

– وأي الرياضات تمارسين؟

– السباحة ، السكواش ، وأتابع دروسا في «الأيروبيك» .

– كل هذا؟

– ماذا عنك؟

ضحكت مجيبا : أنا أمارس رياضة واحدة فقط في نهاية الأسبوع .

ترددت قليلا قبل أن تسأل : أية رياضة؟

عاكستها مستفزا : رياضة ليلية لا تعرفينها ، ممتعة ومرهقة في الوقت نفسه .

تمتمت بسرعة : آه . . . يكفي ، عرفتها .

سارعتُ إلى تغيير الموضوع حتى لا أشعرها بالحرج : وماذا فعلت أيضا؟

عاودتها حماستها وهي تشرح : في نهاية الأسبوع الماضي ذهبنا في رحلة من تلك التي تنظّمها الجامعة للطلبة الأجانب لتعريفهم على البلد ، إلى مدينة Stratford Upon Avon ، مسقط رأس شكسبير ، مدينة رائعة ، هل زرتها؟

- لا .

- معقول؟! وماذا كنت تفعل طوال هذه السنين؟

- أحاول ان أجد لي مكانا فوق هذه الأرض .

- المهم ، أكثر ما لفتني بها هو بيت «شكسبير» وقد تمّ تحويله إلى متحف صغير . تجولّت في أرجائه وشاهدت الغرفة التي ولد بها ، والمكتب الذي كان يكتب فوقه ، وريشته ودواته ، والسرير الذي كان ينام عليه . هناك أيضا مسرح مخصص لعرض مسرحياته ، ولكن للأسف لم يبدأ الموسم بعد .

ضحكت وأضافت : لو عشت في مثل تلك المدينة ببحيراتها وحدائقها ، وقنواتها الضيقة التي تطفو فوق مائها

المراكب الصغيرة الحمر ، لكتبت أفضل منه .

سايرتها مجاملا : بالتأكيد .

أنهت المكالمة متذرّعة بواجب عليها الانتهاء منه قبل الصباح ، وتركتني لهواجسي : هذه المرأة بدأت تغزو كياني . شغفها المدهش بالحياة يثير الغيرة ، وقدرتها الفائقة على التأقلم والمنافسة تدعو إلى الحسد .

صارت محادثاتنا الهاتفية طقسا من طقوسي المسائية . أعود من عملي متلهفّا ، آخذ حماما سريعا ، ألقي بفخذي دجاجة إلى المقلاة ، بعض البطاطا ، قطع من الخضار وتكون الوجبة قد اكتملت . أحيانا أخرى أشوي قطعة من اللحم ، أو أسلق بعض المكرونة مع صلصة جاهزة . ألتهم طعامي على عجل ، أرفع الأطباق ، أغسلها ثم أستلقي في سريري لأستمع إلى نشرة الأخبار .

أهاتفها وأنتظر صوتها على الطرف الآخر . أستفسر عن أحوالها فتجيبني : مشغولة ، مشغولة جدا . أكاد أقيم في المكتبة ، وإن غادرتها فأحمل نصف كتبها إلى غرفتي ، حتى ما عاد في الغرفة متّسع لي .

سألت : بالمناسبة ، ماذا تدرسين؟

قهقهت مستفسرة : غريب أنني لم أخبرك عن موضوع دراستي حتى الآن!

ضحكت بدوري واجدا لها العذر : لديك أشياء أهم على ما أعتقد .

– أدرس عن العولمة ، وبالتخصيص ، الاستشراق الجديد في عصر العولمة . . .

– ماذا يعني؟

– الموضوع طويل وشائك لا يمكن شرحه على الهاتف . لكنه ببساطة يعني ، صورتنا التي روّج لها المستشرقون الغربيون قديما ويحاول بعض المستشرقين الجدد من العرب تكريسها حاليا ، وهي صورة ليست جميلة على الإطلاق . . . . هل تعرف بم يصفوننا؟

سرحت . لم يكن الموضوع يعنيني من قريب أو بعيد ، فقد انقطعت صلتي بالعالم الذي تتحدث عنه منذ زمن طويل حتى كدت أنسى أنني أحمل بذورا شرقية . ما الذي يهمني من الصورة التي قدمها رحّالة غربيون عن صحرائنا ، وطبائعنا ، وتراثنا؟ إنها أشبة بحكايات ألف ليلة وليلة يعاد تدوينها من جديد عبر العصور . ما يهمني هو صورتي عن نفسي ، أقدم نموذجا إنسانيا متوافقا مع متطلبات العصر ، ولا أعبأ بما قد ينعتني به المستشرقون قدماء كانوا أم جدداً ، عربا أم غربا . . .

أتاني صوتها مستفسرا : ألو . . . أما زلت معي؟

أجبت بسرعة : لا ، سرحت . . .

ضحكت قائلة : أعرف أن الموضوع ممل ، ولكن ليس إلى هذا الحد . . .

قاطعتها : ما أخبار عمّان؟

تنهدت بحرقة وقالت : أخبار عمان لا تسر أبدا ، كلما

تصفحت الصحف الأردنية على الانترنت ، طالعتني شكاوى الغلاء وارتفاع الأسعار . كل السلع تضاعف سعرها ، المواد الغذائية والمحروقات . الناس في حالة تذمر دائم خاصة ونحن على أبواب فصل الشتاء .

قاطعتها ثانية : أقصد أخبار الأهل والأصدقاء .

تداركت : أه . . لا جديد في ميدان المعركة!

تساءلتُ : أية معركة؟

زفرت قائلة : لن أخفي عليك ، هناك معركة دائرة ما بين أمي وأبي منذ تزوج أبي من امرأة أخرى ، وازداد أوارها بعدما أنجبت زوجته طفلا في السنة التالية من زواجهما .

تساءلتُ : وما يضيرك أنت من ذلك؟

أجابت مبررة : ما يضيرني هو أنني لم أستطع منع نفسي من حبّ الطفل والعطف عليه كما ترغب أمي . وكنت أقتنص الفرص لزيارته خفية عنها ، إلى أن افتضح أمري فواجهتني بجريمتي . شاكستها مبرّرة : لو رأيت وجهه البشوش وخفة ظله لأحببته أنت أيضا . . . إنه طفل ، لاذنب له في كل ما يجري ، فجن جنونها واتهمتني بالعقوق ، وخيانة جنسي ، وكل تلك المسمّيات القبيحة ، ثم قاطعتني لشهر كامل . أما أبي فقد شعر أنه حسم المعركة لصالحة ، فقرر أن يجعلني وصيّة على الطفل بعد مماته . وهكذا نجح أبي في ربط الطفل بي ما تبقى لي من حياة . وجعل إقامتي مع أمي أمرا في عداد المستحيل .

– وماذا أنت فاعلة؟

أجابت بسرعة منهية المكالمة : لو كنت أعرف لما أتيت إلى هنا ، عليّ الذهاب الآن . . . سأكلمك لاحقا . ولم تعاود الاتصال .

فجأة ، أحسست بأنني علقت في شباك محكمة ، شباك لم أعرفها من قبل ولا أحسن الإفلات منها . لطالما كنت روحا حرة ، سائبة ، لا تتوقف عند امرأة واحدة ، وهأنذا أصبح أسير الهاتف ، متلهفا على الدوام لسماع صوتها ومعرفة أخبارها . صرت مريضا بها ، تصيبني أعراض من التوتر ، والقلق ، وضيق الخلق إن هي غابت عني طويلا ، وما إن أتجرّع صوتها في أذني ، أو أسمع ضحكتها حتى أشفى وتختفي أعراض مرضي . يا إلهي ، هل هي ما أريد حقا أم أنني ما عدت أعرفني؟ لا بد أن أوقف هذه اللّعنة الآن ، وإلا انجررت وراء أمر خطير ، أمر قد لا أستطيع التراجع عنه لاحقا .

بعد أيام ، أرسلت لها رسالة قصيرة عبر الهاتف : لست أدري ما الذي أفعله بنفسي . كنت طليقا كطائر وها أنذا أنتف ريشي بيدي . انسني واشطبي رقم هاتفي . أتمنى لك السعادة .

عدت إلى حياتي المعتادة ، أعمل طيلة النهار وأعود منهكا إلى البيت لآخذ حمامي ، وأعد طعامي ، أستلقي أمام التلفزيون أستمع إلى آخر الأخبار ، وأشاهد فيلما قبل أن أذهب في سبات عميق . في نهاية الأسبوع ذهبت كعادتي إلى ناد ليلي ، تناولت وجبة سريعة ثم انتقلت إلى الحانة باحثا عن صيد ثمين . الحانة مليئة بنساء على قيد الاقتناص . يرتدين

ملامح الفريسة ، غير أنهن فرائس تتواطأ مع صيادها وتسعى إلى شباكه برضا تام . كل ما يلزمني هو أن أرمي بشباكي أمام التي تدعوني لاصطيادها ، لتخطو إلى داخل شباكي بقدميها . نتبادل حديثا عابرا ، نحتسي كأسين أو ثلاثاً ، نتمايل بأجسادنا راقصين مع الموسيقى لبعض الوقت ، ثم أنتهي بها في فراشي لقضاء ليلة ماجنة . في الصباح أكون قد نسيت اسمها ، فأسالها : ماذا كان اسمك؟ متأكدا من أنها الطريقة المثلى التي تجعلها تشتعل غضبا وتختفي من أمامي بلمح البصر .

عيناي تتربصان بالفتيات بانتظار إشارة تدعوني إلى الاقتراب ، بينما ذهني مشغول بسؤال لا يفارقني : لماذا لم تجبني؟ حتى إنها لم ترسل رسالة عتاب أو حتى شتيمة . كيف تهملني بهذه الطريقة؟ خرجت من الحانة وحيدا على غير عادتي عائدا إلى البيت .

في اليوم التالي لم أستطع الاحتمال . اشتريت في طريق عودتي إلى البيت وجبة جاهزة من بائع عربة الشاورما التركي التي على الناصية . أخذت حمامي على عجل ، التهمت الشاورما ، حملت الهاتف الصغير في كفّي وتأملته . وضعته جانبا وانتظرت أن يرن . خذلني . لابد أنها تتابع عرضا ما ، أو تحضر مناقشة ما ، أو تقرأ في كتاب ما . . . . سأرى .

حملت الهاتف وطلبت الرقم . توقعت ألاّ تجيب على مكالمتي ، أن تتركني أرن كنوع من العقاب . ولدهشتي ، ردت

بعد الرّنة الثانية .

همست بصوت رقيق : أنا مذنب ، وأستاهل الضرب!

وكأن ما قلت فاجأها . ضحكت وأجابت : صح .

- اشتقت إليك .

- وأنا أيضا .

- ولم لم تتصلي بي؟

- أنت طلبت مني أن أشطب رقم هاتفك .

- وهل شطبته؟ .

- بالطبع . قل لي الآن ، ما حكايتك معي؟

- لست أدري بالضبط . . . أتصور أنني أرتكب خطأ صميميا دون إرادة مني .

سألت بدهشة : وكيف يكون الخطأ الصميمي؟!

أجبت : الخطأ المدروس ، الذي يقترف بكامل الوعي والإرادة .

استزادت : وما الفرق بينه وبين الخطأ غير الصميمي؟

أوضحتُ : الخطأ غير الصميمي هو الخطأ الذي يقع سهوا . هو الخطأ التافه ، الضئيل . . .

قالت مقاطعة : لكن الخطأ المقصود ليس بخطأ ، لأن الإنسان يعتقد وهو يرتكبه أنه يفعل الصواب .

أجبت : بالعكس . الخطأ الصميمي هو الخطأ البهيّ ، العظيم ، الذي يشعر من يرتكبه بالنشوة رغم علمه الصريح بأن ما يقوم به هو الخطأ بأمّ عينه!

- لم أفهم!

- ليس مهما .

صمتّ قليلا مترددا قبل أن أطلب : أريد ان أراك في عطلة نهاية الأسبوع .

- حسنا ، نلتقي في مكان ما ، ثم نقرّر ما نفعل .

- اتفقنا . باي .

- باي .

التقينا في محطة South Kensington ، ثم قطعنا الطريق إلى مطعم يوناني ، اعتدت ارتياده كلما طغى بي الحنين إلى «ياني» ، مشيا على الأقدام . قطعنا شارعين قبل أن نصل إلى مطعم أنيق في زاوية أحد المباني ، تزدان جدارنه بلوحات من اللونين الأبيض والأسود . يتّخذ من مادتي الخيش والزجاج الملون خلفية لديكوراته الأنيقة . انتصبت فوق الطاولات شمعدانات غريبة ، ما هي إلا زجاجات النبيذ الفارغة ، ملفوفة بالكامل بخيوط من الخيش الملونة بألوان تتناسب مع روح المكان ومفروشاته ، ومغروس في فم كل زجاجة شمعة طويلة تسيل دموعها على جسد الزجاجة ، فيكتسي الخيش بخيوط إضافية من الشمع الملون . صعدنا إلى الطابق الثاني وجلسنا إلى طاولة بالقرب من النافذة العريضة ، قطرات من المطر تلتصق بزجاج النافذة وتسيل في خطوط ملتوية حاجبة الرؤية .

أثنت على أناقة المكان وفكرة ديكوراته المبتكرة ، تفحّصت قائمة الطعام إلى أن حضرت النادلة وابتسامة عريضة تعلو

شفتيها لتسألنا عما نريد . اختارت أن تجرب «الموساكا» على الطريقة اليونانية ، مع كوب من العصير . أما أنا فطلبت دجاجا مشويا مع الخضار .

سجّلت النادلة الطلبات وانسحبت . تبعتها بنظراتها معلّقة : ما بال تلك الابتسامات الفورية التي يرسمها الجميع بتلقائية ما إن تلتقي نظراتهم بنظرات أيّ كان ، حتى في الشارع؟! كيف يستطيعون افتعال الابتسامة بهذه السرعة؟

قلت : ليس افتعالا ، إنها ثقافة الابتسامة التي يمتاز بها الناس هنا .

هزّت رأسها بأسى في مقارنة عقدتها في الخفاء بين ثقافة الابتسامة وثقافة التجهّم التي تنتمي إليها ، ثم أطلقت ضحكة مكتومة ، وعلّقت : تخيّل لو أنني ابتسمت هناك كلما التقت نظراتي بنظرات المارّة! ماذا سيقولون عني؟ بالتأكيد سيطاردونني ظانين أن وراء ابتسامتي دعوة غير بريئة .

تأملت ابتسامتها الجميلة بنظرات طويلة وصامتة . فأخفضت بصرها خجلا ، ثم قالت معترضة : تخيفني عيناك ، مليئة بالأسرار ، غامضة ولا يمكنني تفسير نظراتها .

لم تكن هي المرأة الوحيدة التي حيّرتها نظرات عيني ، والغموض الذي يشوبهما . أعرف أن لعيني سحراً يستعصي على الفهم ، وقوة جاذبة تشبه الرنين المغناطيسي الذي تعلق بنغماته الفتيات من دون وعي أو إرادة .

نفخت الهواء أمام صمتي وتابعت : الرجال عادة ما

تفضحهم نظرات عيونهم ، في كل نظرة إشارة تعبّر عمّا يدور في دواخلهم .

استفسرت باندهاش : وكيف تقرأين نظراتي؟

نفخت الهواء ثانية ، هزّت كتفيها ، وأجابت : في العادة هناك نوعان من الرجال : الصياد ، والعاشق ، أما أنت فعيناك بيضاوان ، لا تبوحان بشيء . . . سأفتح لك خانة ثالثة إلى أن أستقر على تصنيف ما .

جاءت النادلة بالطعام . انتزعت لقمة من طبق «الموساكا» الحارة برأس الشوكه ، نفخت فيها لتخفف من حرارتها قبل أن تتذوّقها . مضغتها وعلّقت : همم ، لذيذة ، أفضل من المسقعة المصرية بكثير!

قلت وشعور بالانتصار يغمرني : سأطهوها لك يوما ما .

نظرت إليّ وابتسمت ، وأظنها لم تأخذ عرضي على محمل الجد . ارتشفت رشفة من كأس العصير وقالت : غريب أمرك! ألم تحب امرأة يوما؟ لم لا زلت أعزب وأنت في الثالثة والأربعين؟

توقعت سؤالها ، فقلت على الفور : بلا ، أحببت «تولين» .

تساءلت : ومن تكون تولين؟

شرحتُ : فتاة تركية كانت زميلتي في الجامعة ، حتى إنني كدت أتزوجها بعد التخرج . فتاة رقيقة ، بشرتها بيضاء منمّشة ، وشعرها حقل من السنابل الشقراء الملتوية ، كم اشتهيت لو أغفو بين طياته إلى الأبد ، ورضابها كأنه أول رشفة

ماء بعد عبور صحراء قاحلة . . .

قاطعتني هاتفة : واو . . . هذا شعر!

ضحكت متابعا : لن تصدقي إذا أخبرتك بأن أم عماد وليس كانتا قد اشترتا «الشبكة» وحضرتا إلى تركيا لطلب يدها من أهلها قبل أن تقع الحرب ، ولكني غيّرت رأيي في اللحظة الأخيرة ونفذت بجلدي .

– كيف نفذت بجلدك وأنت تقول بأنك كنت تحبها؟

– أحببتها نعم ، ولكني اكتشفت أنني لم أكن مستعدا للتضحية بحريتي والارتباط النهائي وأنا ما زلت في بداية العشرينات . أعرف ، ستقولين إنني نذل وجبان ، ولكن هكذا أنا ، روح حرة لا تطيق القيود .

بعد أن أتت على طبق «الموساكا» أو المسقعة كما نسمّيها ، اقترحت عليها أن تتذوق «البقلافا» اليونانية مع القهوة . أشرت إلى النادلة فحضرت مسرعة تحمل دفتر الطلبات الصغير والقلم . طلبنا قطعتين من البقلاوة وفنجانين من القهوة اليونانية .

تساءلت باستغراب صريح : غير معقول! من أين لك كل هذه الخبرة بالمطبخ اليوناني؟

– من ياني!

– من هو ياني؟

– أعظم وأطيب عجوز في هذا العالم! وسردت لها قصتي مع ياني .

أحضرت النادلة الطلبات ، ووضعت فنجاني القهوة أمامنا والابتسامة لا تفارق شفتيها الكرزيتين . نظرت إلى فنجاني القهوة الصغيرين وعلّقت : هذه قهوة تركية!

جفلت النادلة ، بحلقت بها بعداء وصحّحت : لا . هذه قهوة يونانية وليست تركية .

أجابتها : آسفة ، اختلط عليّ الأمر .

وما إن أدارت النادلة ظهرها ، حتى غرقنا في موجة من الضحك . قلت : كدت تدخلينني في نزاع سياسي بسبب القهوة .

قالت : لم أكن أعلم بأنها على هذا القدر من الحساسية . ولكنها بالتأكيد قهوة تركية وأنت سيد العارفين .

أجبت : طبعا أعرف ، وأعرف أيضا العداء التاريخي ما بين تركيا واليونان ، ولكني أفضّل عدم إثارة نوازع البغضاء مع النادلة ، خاصة وأنها جميلة للغاية .

لم تظهر عليها أي علامة من علامات الغيرة ، ظلّ وجهها محتفظا بجديّته التقليدية ، وجسدها مسترخيا في المقعد المقابل ، حتى إنها أيدتني معلنة : معك حق . المهم أن نستمتع بقهوتنا حتى وإن كانت صينية .

تسكعنا قليلا في ميدان «Kingsington» تحت الأمطار الغزيرة التي ، وبالرغم من مظلّتها الكبيرة ، بلّلت ثيابنا ودفعتنا إلى الاحتماء بأقرب محطة أنفاق اعترضت سبيلنا . عرضت عليها الجلوس في مقهى المحطة لبعض الوقت في محاولة لإطالة

فترة مكوثها معي قبل أن يقلنا قطاران متعاكسان .

جلسنا متقابلين حول طاولة دائرية صغيرة ، فبادرتني بالسؤال : قل لي ، كيف عثرت على مهنتك؟

قلت مازحا : بل هي التي عثرت عليّ .

– كيف؟

– بالصدفة المحضة .

– أي نوع من الصدفة؟

– بائع عربة الشاورما التركي التي على ناصية الشارع .

نفخت الهواء من غير صبر وقالت بحنق : أخبرني بالتفصيل وليس بالقطّارة .

أخيرا نجحت فيما كنت أسعى إليه ، مشاغلتها بالتفاصيل عن النظر إلى ساعتها التي تتفقد بها الوقت كل خمس دقائق . أسندت ظهري إلى كتف المقعد مسترخيا وسردت : بعد أن التأم شملي مع عائلتي هنا من جديد ، ظننت أن أوجاعي قد انتهت إلى غير رجعة ، إلا أن حظي العاثر أبى ان يفارقني .

استفسرت بإشارة من يدها ، فتابعت : حتى الجنسية التي حصل عليها سائر أفراد أسرتي بكل بساطة استغرقتني خمس سنوات .

ضحكت متسائلة : لماذا؟ هل اقترفت جرما؟

قلت : يا ليت . في العادة بعد سنتين من الانتظار تكون الموافقة قاب قوسين أو أدنى . أما أنا فلم أتسلّم ردا حتى بعد انقضاء السنتين ، وحين ذهبت للاستفسار عما استجد على

طلبي أخبروني بأنه مفقود والبحث جار عنه . استغرق العثور عليه حوالي السنتين ، دخلت أثناءها في دوامة الانتظار السمج من جديد . عدت أحمل ذاك الرأس الفارغ وأجلس لأفعل اللاشيء

لفّت ساعديها حول بعضهما واتكأت بهما فوق الطاولة ، ثم أمالت بجسدها إلى الأمام مصغية بانتباه شديد .

تابعت حديثي : لم أحتمل فكرة أخذ مصروفي من والدي ، كما لم أحتمل فكرة إقامتي مع أسرتي أيضا بعد تلك السنوات الطويلة من الحرية والاستقلال ، فذهبت أبحث عن عمل . وكلما وجدت عملا لائقا طالبوني بالرقم الوطني الذي ما كنت قد حصلت عليه بعد .

تنقلت في أعمال سوداء حقيرة دون مستوى الأرض ، عملت في مسلخ للحوم ، فكان يقتلني البرد في الخارج ويجمدني برد الثلاجات العملاقة في الداخل ، ففررت . عملت مفتشا للأمن في أحد المجمّعات التجارية الكبيرة ، فانقلب ليلي نهارا ونهاري ليلا ، فاستقلت . أنهيت دورة لمدة ثلاثة أشهر في تصميم المطابخ ، والتحقت بالعمل لدى شركة لصناعة المطابخ ، فأصرّ المدير على أن يجعلني موزّعا بالعمولة لا مصمّما براتب ، فهربت .

وما إن تم العثور على الملف الخاص بي حتى كانت الحكومة قد أصدرت قانونا جديدا يلزم طالبي الجنسية بتجاوز امتحان كتابي قبل أداء يمين الولاء للملكة . بعد حوالي سبعة

شهور اجتزت الامتحان ، وتم استدعائي لحضور مراسم أداء يمين الولاء للملكة . أقسمت اليمين ، وحصلت على الجنسية البريطانية . أصبح لي وطن جديد ، وصار بمقدوري الحصول على وظيفة محترمة فوق سطح الأرض .

ابتسمت بدهشة وقالت : وما دور بائع الشاورما التركي في كل ما قلت؟!

أشرت لها بأن تنتظر ، أخذت نفسا وتابعت : قبل عشر سنوات ، عبر مصطفى الحدود التركية إلى ألمانيا ، مختبئا في أحشاء صندوق ضيق أسفل شاحنة بضائع ، بمساعدة شبكة من تلك التي تعمل على تهريب مئات من البشر الفارّين من ويلات الحروب والفقر هناك بحثا عن الأمن والاستقرار هنا . ومن ألمانيا ، قطع الحدود إلى فرنسا حتى وصل إلى هنا ، لأن غالبية المهاجرين يحبّذون هذا البلد بسبب ما يوفّره من تسهيلات لهؤلاء المهاجرين بعكس سائر الدول الأوروبية .

عندما علم بأنني أتقن اللغة التركية ، طلب مني مرافقته إلى مكتب الهجرة كونهم استدعوه للتثبت من شرعيّة إقامته . رافقته إلى مكتب الهجرة ، وترجمت له بأنه ينبغي عليه التقدم بطلب لجوء بوساطة محام في حال أن رغب في البقاء هنا . تابعت جميع لقاءاته مع المحامي إلى أن تّمت الموافقة على طلبه ومنح حق اللجوء والإقامة . كانت الإجراءات الخاصة بطالبي اللجوء قبل الحرب الأخيرة على العراق سهلة ويسيرة ، ولكن بعد تدفّق الآلاف من المهاجرين العراقيين إلى البلد بعد حرب

٢٠٠٣ ، وانهيال طلبات اللجوء كالمطر ، لم يعد باستطاعة الحكومة استيعاب هذا الكم الهائل من الطلبات ، خاصة أن القانون ينص على توفير مسكن ، ورعاية صحيّة ، وتخصيص إعانة أسبوعية لطالبي اللجوء إلى أن يبت في طلباتهم سواء بالرفض أو القبول . . . .

تساءلت بنفاد صبر : المهم؟

تابعت : المهم ، عندما لاحظت الموظفة التي كانت تجري المقابلات مع مصطفى تمكّني من مهارات الترجمة ، سألتني إن كنت أرغب بالقيام بمهام الترجمة للمكتب على نحو مستمر ، بشرط أن أتعهد بإكمال دورة متخصصة في الترجمة لمدة سنة على نفقة الحكومة . رحبت بالفكرة وأبديت استعدادا لأخذ الدورة على أن أتفرغ للعمل بعد إنهائي الدورة لدى مكتب الهجرة .

علّقت مستنكرة : ولماذا برأيك تقدم الحكومة هذا الكم من التسهيلات للمهاجرين؟

أوضحتُ : لأن الحكومة هنا تتبنى سياسات منفتحة تجاه المهاجرين وتؤمن بالتعددية العرقية ، حتى إن المشاكل العرقية هنا تقل كثيرا عن غيرها من الدول الأوروبية . . .

قاطعتني وقد بدت عليها علامات الاستياء : هذا هو الظاهر فقط . . . أنا أعتقد أن هذه الدولة تكّفر عن ذنوبها تجاه الأمم التي استعمرتها ونهبت خيراتها يوم أن كانت أراضيها لا تغيب عنها الشمس . . .

قاطعتها : ولكن الموضوع هنا إنساني أكثر منه سياسي!

قالت : كل ما يدور حولنا سياسي ، حتى الإنساني منه . إن تتبعت تاريخ هذا البلد ستجد أن كل النزاعات الإقليمية ، العرقية والطائفية منها ، هي من مخلّفات الاستعمار البريطاني ، لم يترك هذا الاستعمار أياً من «الكولونيات» التابعة له من دون أن يخلّف وراءه نزاعا ما ، وأكبر مثال على ذلك فلسطين . . .

قلت بحدة : ولكن كثيراً من الدول التي لها تاريخ استعماري لا تتبنى مثل هذه التسهيلات تجاه المهاجرين ، وخذي مثالا على ذلك فرنسا وإيطاليا .

نظرتُ إليها بتحد وأضفت : لولا هذا البلد لظللنا معلقين على حدود دولة ما ، كما يحدث الآن لفلسطينيي العراق على مثلث الحدود العراقي الأردني السوري .

هزّت رأسها أسفا وقالت : ولولا هذا البلد لما هاجر الفلسطينيون من أرضهم ابتداء . هذه هي المشكلة ، يريدوننا أن نغفر لهم . . . ويبدو أنهم ينجحون!

نظرت إلى ساعتها منهية الحوار ، ودّعتني وتوجّهت إلى حيث استقلّت القطار ومضت .

قطعت الطريق الفاصل ما بين المحطة والبيت ، غارقا تحت وابل من الأمطار الغزيرة التي صبّتها سماء سوداء فوق رأسي ، وتحت وابل آخر من الأفكار السوداء التي دلقتها هي داخل رأسي . ساءلت على إثرها نفسي : ما الذي تريده بالضبط؟ أن

نرفض الإقامة هنا إلى أن تقوم بريطانيا بتصحيح خطئها التاريخي وتعيدنا إلى فلسطين؟! أي منطق هذا؟

لو كتب عليها أن تصطفّ يوما واحدا فقط في طابور حاملي الوثائق ، لما كانت هنا أصلا . لو واجهت الذل والمهانة التي واجهناها كلما أردنا عبور حدود دولة ما ، عربية كانت أو أجنبية ، لفكّرت مرتين قبل أن تقصفني بحماقاتها تلك . لو أنها جرّبت أن تقف مثل جرذ حقير ، أو كلب أجرب على باب السفارات ، بما فيها سفارات تلك الدول التي أصدرت لنا مثل تلك الوثائق ، لما تعالت عليّ بمثالياتها الزائفة . لو أنها شاهدت كيف يصفعون وجوهنا بذلك الختم الأحمر القبيح (مرفوض) وكأننا وباء أو طاعون ، كلما رغبنا بالحصول على تأشيرة ، لكانت وجدت لي عذرا ولو من قبيل المجاملة . لو أنها . . .

فجأة ، رن الهاتف النقال معلنا عن وصول رسالة : آسفة ، لم أقصد الإساءة ، يبدو أنني حمّلت الموضوع أكثر مما يحتمل .

لم أجبها انتقاما لنفسي ، ولم أكلّمها حتى اتصلت بي واعتذرت .

عشية عيد الميلاد ، كلّمتها مستفسرا : ماذا تفعلين؟

أجابت بتلكؤ : المعتاد ، أقرأ .

– ولكننا في عطلة أعياد الميلاد!

– عطلة لكم ، أما نحن الطلبة فعلينا واجبات . ينبغي عليّ تسليم ثلاثة أبحاث في ثلاثة مساقات بعد انتهاء العطلة .

– ومنذ متى تستعصي عليك الكتابة؟

– ليست الكتابة ، عليّ قراءة أطنان من الكتب قبل التمكن من كتابة صفحة واحدة . . .

– يعني ، لن تخرجي إلى أي مكان؟

– لا أظن .

أنهيت المكالمة سريعا : حسنا . باي .

بعد ساعة واحدة كنت أطرق بابها . فتحت الباب وهي تتوقع أن يكون الطارق إحدى زميلاتها في السكن ، وما إن وقع نظرها عليّ حتى عانقتني كطفلة وجدت أباها بعد طول غياب ، ودفنت رأسها في صدري مخفية وجهها عني .

وحين طال مكوثها هناك ، تساءلت : ما الأمر؟ لم تخفين وجهك عني؟

أجابت بوجل : فاجأتني ، شعري غير مسرّح ، ووجهي أصفر ، وعيناي جاحظتان . . . ما كنت أحب أن تلتقيني على مثل هذه الهيئة .

أسرعت إلى الحمّام لتصلح من شأنها ، فوقفتُ أستعرض محتويات الغرفة القليلة ؛ سرير ، مكتب يعلوه أرفف خشبية ، خزانة ملابس صغيرة . على الحائط فوق السرير ملصق كبير لذئب يعوي تحت ضوء القمر ، إلى جانبه ملصق آخر لثلاث قطط صغيرات يتثاءبن داخل سلّة صغيرة من القش . إلى جوار الكتب المبعثرة فوق المكتب لوحة صغيرة لامرأة عارية تمتطي حصانا ، تستر نهديها بخصل من شعرها الطويل ، وتحني رأسها إلى الأمام بانكسار ذليل . تفحّصت اسم اللوحة فكانت

«الراكبة العارية» .

جلست على مقعد صغير أمام جهاز الكمبيوتر . عبثت بأزرار الكمبيوتر قليلا ثم سألت : هل لديك موسيقى؟ أتاني صوتها مجيبا : هناك محفظة مليئة بالأقراص على الرفّ ، انتق ما شئت منها . وضعتُ قرصا لجورج وسّوف فأتاني صوته : «حبيت أرمي الشبك . . . على قلب ما بينشبك . . .»

ضحكت في سرّي معترفا : يا إلهي ، كم تشبه كلمات هذه الأغنية قصتي معها!

ما إن أطلّت بإشراقتها التي أعرفها ، حتى واجهتها بالسؤال : من تكون المرأة التي في هذه اللوحة؟

حملت اللوحة بين يديها ، وسألتني : أليست رائعة؟!

أيدتها : هي كذلك!

تابعت : إنها Lady Godiva

-ولم تركب الحصان عارية؟

– بسبب زوجها ، كان «ليوفريك» زوج الليدي «غوديفا» ، لوردا مستبدّا يحكم مدينة «كوفنتري» ، وكان قد فرض ضريبة قاسية على المواطنين الذين اشتكوه إلى سيدتهم . وعندما طلبت «جوديفا» من زوجها إلغاء تلك الضريبة ، أجابها بأنه سيلبي طلبها إن هي ركبت الحصان عارية وجابت به أنحاء المدينة في يوم انعقاد السوق الشعبي موقنا أنها سترفض . إلا أن الزوجة المحبة لشعبها ، ركبت الحصان عارية الا من شعرها الطويل ، الذي كان من فرط طوله يغطي نصف جسدها بحيث

لم يظهر منها الا ساعداها وساقاها ، وطافت في المدينة من دون أن يراها أحد . . .

قاطعتها مندهشا : كيف ، وقد كان يوما من أيام انعقاد السوق الشعبي؟

تابعت : كان خبر الشّرط قد شاع في المدينة ، فما كان من الناس إلا أن لزموا بيوتهم وأحكموا إغلاق الأبواب والنوافذ حفاظا على كرامة سيدتهم . وبذلك ، لم يرها أحد عارية . . . وهذا على ذمة الحكاية .

– وهل امتثل اللورد؟

– طبعا . ألغى اللورد الضريبة الكريهة ، وخلّد الناس تضحية سيدتهم بلوحة رائعة .

قلت مستفزا : ومن أين لك هذه الحكاية؟

نظرت إليّ نظرة استنكار قبل أن تقلب اللوحة وتقدمها إليّ قائلة : إقرأ ما هو مكتوب على ظهر اللوحة وتأكد بنفسك .

تفاديت طلبها بطرح سؤال آخر : وما حكاية هذين الملصقين على الحائط؟ هل أنت متناقضة إلى هذا الحد؟

هزت رأسها نافية وأوضحت : ليس تناقضا ، إنها فقط إشارة إلى أن باستطاعتي ان أكون ذئبا مفترسا ، كما باستطاعتي أن أكون قطة مسالمة .

– وعلى ماذا يعتمد ذلك؟

ضحكت مجيبة : على سلامة نوايا الآخرين .

جلست على السرير ، وسألتني : ما الذي أتى بك؟

بالتأكيد ليس التحقيق في محتويات غرفتي!

استدرت بالكرسي نحوها وقلت : الضجر . روح الأعياد ترفرف على المدينة ، الأشجار المضاءة ، ومظاهر الزينة على نوافذ البيوت و في الشوارع وأماكن التسوّق ، كل المدينة مضاءة ، وأنا وحدي المعتم . الناس مجتمعون لتناول وجبات الطعام وقضاء أوقات لطيفة ، وأنا أكاد أجن من وحدتي .

– لم لا تذهب إلى بيت والديك؟

– والديّ لا يحتفلان بعيد الميلاد .

– اليس لديك أصدقاء؟

– يحتفلون مع عائلاتهم . صراحة ، لم أفكر بسواك لمثل هذه الليلة ، فكلانا غريب .

انتقلتُ إلى جوارها على السرير وسألت : أخبريني . هل لديك صور لعمّان؟

تلفتت حولها باحثة وهي تجيب : لديّ ألبوم من الصور لعمان!

توجهت إلى المكتبة وانتشلت ألبوما للصور من بين الكتب الكثيرة . شرحت لي وهي تقلّب الصفحات : هذه صورة لسماء عمان المرصّعة بالنجوم ، وهذه الصورة لشمس عمان وهي تغرب خلف أحد التلال ، وهذه الصورة لشجرة التين العملاقة في حديقة بيتنا ، أما هذه ، فصورة شجرة الياسمين ، ولو استطعت تصوير الرائحة التي كانت تنشرها على شرفة بيتنا لما ترددت . وهذه الصورة لتساقط الثلوج فوق جبال عمّان . . .

سألتها مقاطعا : وهل هذا كل ما في عمّان؟

– هذا هو ما يستحق التصوير . . . ماذا أصور؟ العمارات والجسور والشوارع؟ أكثر ما أحب في عمّان هو سماؤها . سماء ساحرة تزينها تشكيلات من الغيوم الجميلة نهارا ، ومئات النجوم المتلألئة ليلا . لم أر مثلها في أي مكان .

شردت أفكر : كيف لها أن تهجر مدينة تكنّ لها كل هذا الحب؟ ورغم اعترافها السابق بأن علاقتها بتلك المدينة علاقة ملتبسة ويصعب تفسيرها ، إلا أن كلامها يؤكد أن كل طلعة شمس ، كل حبة مطر ، كل زقزقة عصفور ، وكل شجرة ياسمين محفورة بعمق في ذاكرتها! كم أودّ لو أضمّها الآن إلى صدري ، أن أمسح بقلبي غبار غربتها ، أن أعترف لها بأنها مينائي الذي عثرت عليه بعد سنوات طويلة من الإبحار ، تبعت فيها شراعي حتى ضاعت مني يابستي . . .

كم أود أن أخبرها بأن مدينتها دون غيرها من المدن ظلّت عصيّة على بوصلتي ، لأنها لا بحر لها ولا شاطئ ، مدينة سكنتها ، وهي سكنتني حتى كدت أحترق بالنيران التي تلهتب في صدرها . . . .

وددت لو أعترف لها بأشياء كثيرة ، لكن الكلمات تحجّرت في حلقي وعجزت عن نطقها .

راحت أصابعي تقلّب في صفحات الألبوم على غير هدى ، وبعد أن عجزت عن العثور على ضالتي ، سألتها : هل لديك صور لأفراد أسرتك؟